الجمهورية العراقية

رئاسة ديوان الأوقاف

المدارس







# موجز البيان



## في مباحث القرآن



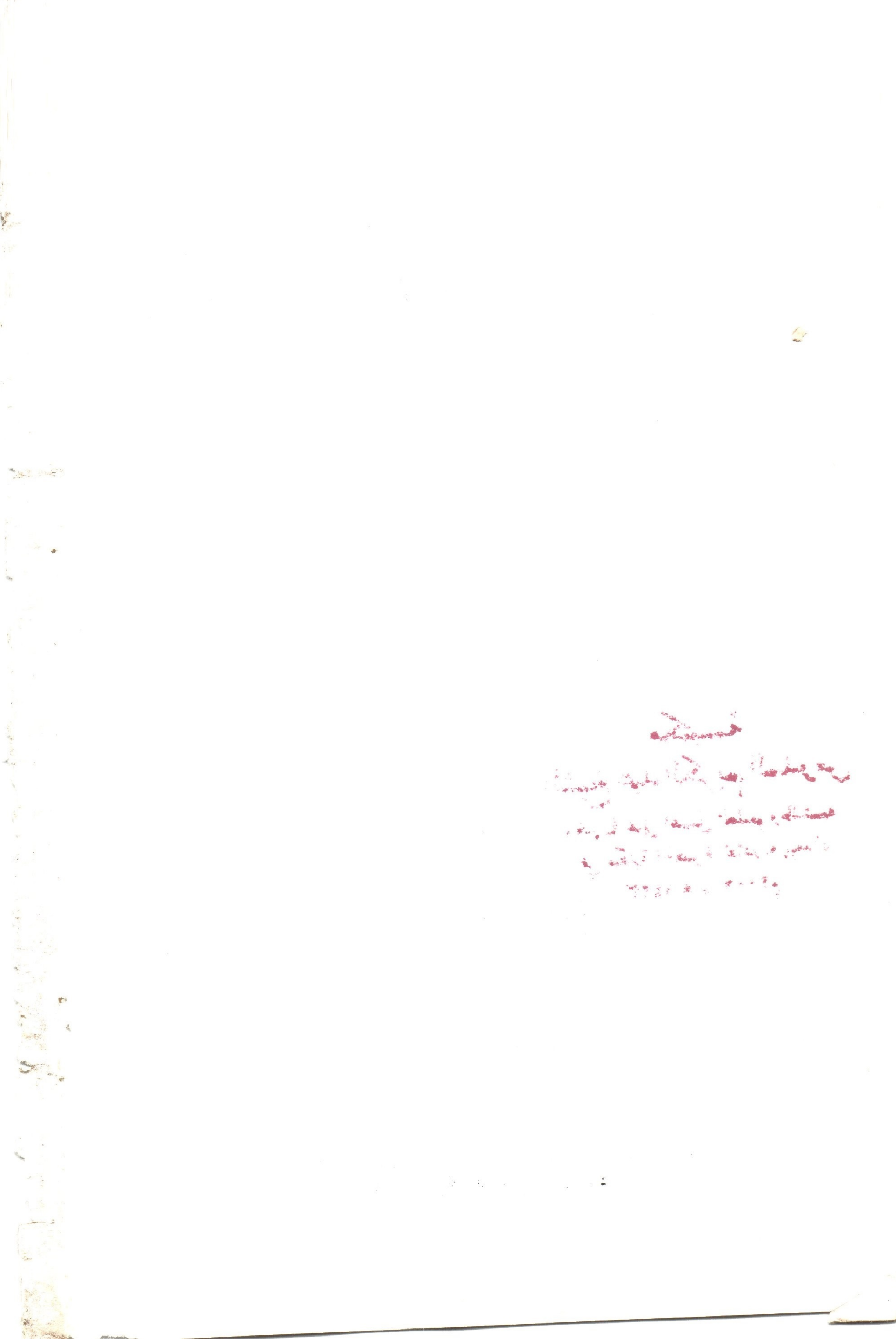
تأليف

كمال الدين الطائي



١٣٩١هـ - ١٩٧١م

مطبعة سلمان الاعظمي - بغداد



# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقـــدمة

بقلم الاستاذ الاديب الفاضل صديقنا السيد كمال ابراهيم
الاستاذ في جامعة بغداد

---

عني الاستاذ الشيخ كمال الدين الطائي منذ سنوات بالمباحث المتعلقة بالقرآن الكريم ، فنصب نفسه لدراسة ما كتب أعلام الملة ، وشيوخ الشريعة في هذا الغرض ، مما وصلت اليه يده ، من اقدم العصور الاسلامية الى اليوم ، وكان من نتيجة دراسته الطويلة تلك ، أن أخرج للناس هذه الفصول الجامعة ، في مختلف ما كتب عن القرآن ، بعد أن ضم متفرقها ، ولم شواردها ، من بطون الكتب والمصنفات ، فجاءت مجموعة نادرة في البحث عن القرآن الكريم من وجوه شتى ، أهمها من حيث : نزوله ، ومكيه ومدنيه ، وجمعه ، وخطه ، وتجويده ، وحروفه ، وقراءاته ، وتلاوته ، والنسخ ، والمحكم والمتشابه منه ، وترجمته ، وقصصه ، وأمثاله ، وفواتح سوره ، والقسم فيه ، واعجازه ، واسلوبه وفصاحته ، وأثره في تحرير الفكر الانساني ، الى غير ذلك مما يتصل به ، ويدور في مقاصده عليه ..

وقد نشر طائفة كبيرة من هذه البحوث في أجزاء مختلفة من « الذكرى المحمدية » التي تصدرها جمعية الهداية الاسلامية ببغداد ، والتي يتولى هو اصدار وتحرير صحفها ، فكان لها الاثر النافع في البحث الاسلامي الدقيق ، وتوجيه القراء الى استزادة العلم بالقرآن ، وتفهم ما يتصل به من أسرار .

وفي اخراج هذه البحوث المتفرقة ، في رسائل جامعة مستقلة ، خدمة أخرى جديدة ، يقوم بها صديقنا الاستاذ الطائي ، فوق خدماته الوفيرة المشكورة في ميادين الكفاح الاسلامي الاغر ... وفقه الله واعانه ..

ان خير ما يكتب الكاتب ، ويعرض له العالم العامل ، في زمننا هـذا ، ما كان فيـه بعث النفوس الى هدى القرآن ، وغذاء العقول بمعاني القرآن ، واضاءة القلوب بنور القرآن ٠ فان حياة الناس بما غشيها من ظلمات هذا العصر المادي ، في شروره وآثامه ، وجوره وأنانيته ، ورروحه الوثنية الطاغية على الابصار والبصائر ، قد جمحت بهم عن السبيل ، وزاغت بأبصارهم عن اجتـلاء ذلك النور الالهي المشرق على بني الانسـان ، في بينـات الهـدى والفرقان ، « كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور » ٠

اجل ! لقد اجدبت القلوب من فيضه اليوم ، وغاض منها ذلك المعين الالهي الفيـاض ، الدافق بالايمـان الحي ، والعـزم الصلب ، والارادة الخارقة ٠٠ ذلك الذي قال للارض : كوني غير ما انت فكانت غير ما كانت بالامس ٠٠٠

تلك قوة الهية !! اراد الله أن ينعم بها على الانسـان ٠٠٠ فكانت في القرآن ٠٠٠ يتمثل المؤمن معانيه فتكون فيه قوة من قوة الله !! هذه القوة التي لا تقف في وجهها سدود ولا حـدود ٠٠ لانهـا خلقت لتغزو لا لتقف ، ولتسير في الدنيا تصلح وتحرر وتشيد ٠٠ فاذا وقف المؤمن ، افلتت من بين يديه ، لانها لم تخلق لذلك ٠٠ وبهذه القوة القرآنيـة التي عمرت القلوب ، بدأت قافلة الايمان تسير من نقطة البدء ، من « مكة » فلم تقف الا الى آخر الدنيا اذ ذاك ، فلما وقفوا تركتهم وانصرفت ٠٠

هذه معجزة القرآن !! فهل هناك معجزة اعظم منها ٠٠٠؟

هذه هي المعجزة الدائمة ٠٠ أتى الله بها كذلك ، لأنه ختم بها دينـه الى يوم القيامة ٠٠٠ وجعل رسـوله خاتم النبيين الى يوم القيامة لتـكون رسالته حية قائمة في كل عصر ٠٠ ما دامت معجزته حية قائمة في كل عصر ٠٠

فأين هم المؤمنون الحقيقيون خلائـف محمد ورسـله من بعده ٠٠؟ ما أحوجنا اليوم الى أن نتفهم أسـرار هـذه المعجزة ، ونعـلم عنها أكثر ما نستطيع أن نعلم ، فنستمد منها حياة لقلوبنا ، وهدى لأبصارنا وبصائرنا ، ونرجع الى مشرق النور نقتبس منه أنوار الهداية والحق ، بعد أن أضلتنـا أهواؤنا ضلالا بعيدا ٠

ما أحوجنا في هذا العصر ، وقد راجت اسـواق الضلالـة ، وتفاقمت الشرور والآثام ، وكثرت الشكوك ، وانتشر الالحاد ، واشتدت غارات دول الغرب على الاسلام ، تكيد له في السر والعلن ، بما تنشر من وسائل الافساد والتفسيخ والهدم .. أقول ما أحوجنا في مثل هذه الحال ، الى أن نتماسك قليلا قليلا ، ونعود الى أنفسنا ، فننظر فيما بين ايدينا ، ونرجع الى كتاب الله ، نبحث فيه ، ونتملأ من معانيه ، ونستمد روح الايمـان منه ، ليبعث فينا الحياة من جديد ، كما بعثها من قديم .

والقرآن الكريم متسع جوانب البحث ، متعدد مناحي الدراسة ، لا يكاد يستوعبها مستوعب ، فالواجب على علماء الدين ، والذادة عن الشرع الحنيف في عصرنا هذا ، ان يعملوا ما وسعهم الجهد ، في تقريب الناس من القرآن ، وتبسيط مذاهب القول فيه ، والتماس أيسر السبل في توضيح آياته وبحث أسراره ، والدعوة له ، والتمثل بروحه القوي ، ونشر هذا الروح في شـتى الوسائل ، وفي مختلف المعارض ، ليكون تأثيره في النفوس أسرع ، وعملـه فيها أبلغ وأنفع .

ولما كان من العسير على الباحث في علوم القرآن ومباحثه الاخرى ، أن يلم بها فيما يكتب فينتظمها جميعا ، كـان لزاما أن يسـتقل كل باحث في القرآن الكريم بناحية من نواحيه ، يشبعها دراسة وتمحيصا ، ويفيها حقها بجمع أشـتات مسائلهـا ، ومتفرق حقائقهـا ، فيخرجها للقراء وحـدة في الموضوع ، متماسكة الاجزاء ، مستحكمة الاواصر ، وفي الذي فعل صديقنا الطائي مثل حسن ، وقدوة صالحة ، لمن يريد خدمة الدين والبحث من هذا الوجه ... وفق الله الجميع لما فيه خير الاسلام ، واعلاء كلمة المسلمين ..

كمال ابراهيم

# بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ٠ الرحمن الرحيم ٠ مالك يوم الدين ٠ اياك نعبد واياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم ٠ صراط الذين انعمت عليهم ٠ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ٠٠٠

اللهم صل على سيدنا محمد الذي انزلت عليه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وعلى آله واصحابه حملة الدين ومصابيح الايمان ٠

اما بعد : فان هذه رسالة موجزة في مباحث القرآن الكريم اردنا ان نفتتح بها سلسلة الرسائل التي عزمت على اصدارها ونشرها ، لتفهيم حقائق الاسلام ، والدعوة الى السير على هداها ، واتباع نهجها في نواحي الحياة الاجتماعية للفرد والجماعة والامة على السواء ٠

لقد اسمينا هذه الرسالة ب ( موجز البيان في مباحث تختص بالقرآن ) واقتصرنا في فصولها على ما يتعلق بمادة القرآن من حيث الترتيب والترتيل وشيء من معانيه على ان نتبع هذا الجزء باجزاء اخرى في شرح مقاصد القرآن بوجه عام ، ولم نورد تفصيلا باسماء المصادر التي استقينا منها تلك الفصول لكثرتها ، وقد اشرنا في بعض المواضع الى الكتب التي مست الحاجة الى التصريح باسمائها دعما للحجة وتسهيلا للمراجعة ، هذا عدا كثير من المجلات والصحف الاسلامية التي تناولت بعض هذه المواضيع ٠

هذا ونسأل الله تعالى ان يوفقنا لاصدار الاجزاء الباقية ويهيء لنا الوقت لخدمة كتابه الكريم ، انه سميع الدعاء ٠

١٢ ربيع الاول ١٣٥٩ — كمال الدين الطائي

# مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والتسليم على سيدنا محمد خير خلق الله ، وعلى آله وأصحابه ومن والاه ٠

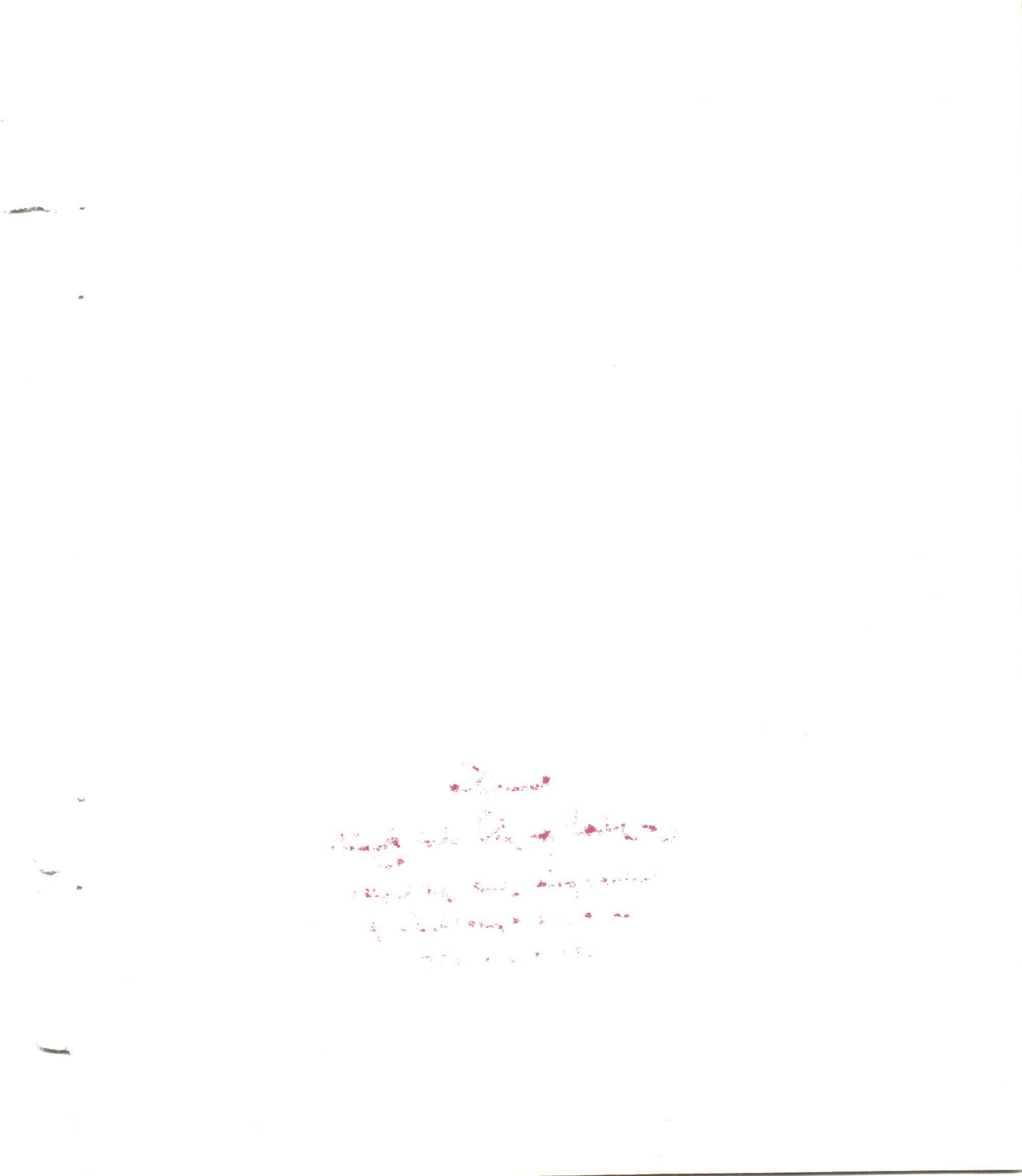
أما بعد : فهذه رسالة كنت قد نشرتها منذ ثلاثين سنة بعد أن عزمت على أن الحق بها رسائل أخرى تبين النواحي العلمية والثقافية والتعبدية والبلاغية والتاريخية ونواحي أخرى مما اشتمل عليه الذكر الحكيم ، لتكون تبصرة لي ولاخواني طلاب العلم والمبتدئين ٠

الا أن الحوادث التي وقعت في العراق سنة ١٩٤١ وما تلاها من اضطهادات واعتقالات شملني غبارها واستمر ما يقرب ثلاث سنوات حالت بيني وبين أمنيتي ، ثم ان الاشتغال بالتدريس لم يترك أمامي فراغا ، ولعل الله يعينني على تحقيق أمنيتي وهو خير معين ٠

وقد أراد اخواني الاساتذة أن يستعين طلاب الصفوف الثانوية من المعاهد الاسلامية بهذه الرسالة نظرا لاختصارها وسهولة عبارتها ، وتعهد ديوان الاوقاف مشكورا بطبعها ٠

وها هي ذي الآن تظهر مرة ثانية بعد غيبة طويلة ، واني أرجو الله العلي القدير أن ينفع بها ، وأن يثيبني على عملها ، وان يوفقني لخدمة طلاب العلم ورواد المعرفة ، انه سميع مجيب ٠

كمال الدين عبدالمحسن الطائي　　　　١٣٩١هـ - ١٩٧١م



# وصف القرآن الكريم

القرآن : هو كلام الله تعالى المنزل على محمد (ص) ، المكتوب في المصاحف والمنقول عنه نقلا متواترا .

القرآن : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » أوحاه الله تعالى الى رسوله وصفيه محمد (ص) بلسان عربي مبين « ليبشر المتقين وينذر به قوما لدا » ، خاطب فيه القلوب بالموعظة ، والعقول بالدليل ، ولفت النظر الى ما في الكون من آيات وعبر ، فانطلقت به الافكار من قيودها ، وتحركت بعد خمودها وجمودها ، فاستبان الحق ووضح النهج ، وقامت الحجة وانزاحت الشبهة .

القرآن : كلمات من نور انبعثت من شمس الجلال القدسي ، فأنارت الدنيا وكانت غارقة في لجة الظلام ، وبدلت نظم العالم من همجية وجهل الى انسانية كاملة ، وعلم نافع ، وتفكر وافتكار .

القرآن كلمات دونها السحر تأثيرا ، نزلت بجذب القلوب فأحيت مواتها ، وبدلت خرابها عمرانا وخوفها أمانا ، فهطل على تلك القلوب غيث معانيها ، فاهتزت ونما فيها الثمر الشهي والنور الزاهر ، فآياته تسحر القلوب بحسن اسلوبها وبديع فواصلها ، وتستدعي الاسماع ، وتخلب الالباب .

القرآن : بحر خضم تلاطمت أمواجه بين وعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، وتعليم وتهذيب ، وأمثال وحكم ، ونعيم ونعم ، ووقائع الله في الامم وما أصابها من النكال في تكذيبها للانبياء ، وما حل بالظالمين والمتجبرين من البلاء .

القرآن : مملوء بحرية العقل والتفكير المطلق ، وتوسعة نطاق العلم والمعلومات ، ورابطة الاخوة والمساواة ، والشرائع الالهية ، والقوانين الدينية والمدنية ، والعلوم الرياضية والطبيعية ، لم يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها .

القرآن : عجز فصحاء العرب عن الاتيان بمثله مع انهم خصوا بالتحدي ، وكان للفصاحة عندهم المقام المعلى ، ودعاهم في آيات منه الى المعارضة ، وناداهم « فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين » ثم تحداهم بقوله « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين » ثم صاح بهم « لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

فأعترفوا : ( ان نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد )[1] .

القرآن : هو الذي جعله الله تعالى ( رياً لعطش العلماء ، وربيعاً لقلوب الفقهاء ، ومحاج لطريق الصلحاء ، وبرهاناً لمن تكلم به ، وشاهداً لمن خاصم به ، وفلجا لمن حاج به ، وعلماً لمن وعى ، وحدياً لمن روى ، وحكماً لمن قضى )[2] وهو المرجح حين يجد الخلاف ، والمعجزة الصريحة التي يعتز بها العقل ، ويصح للمسلمين أن يواجهوا بها العالم غير مترددين ليحملوا عدده على الايمان به والخشوع لديه .

---

(١) اعجاز القرآن للباقلاني (٢) نهج البلاغة .

القرآن : كما قال ابن المعتز ( فضله على سائر الكلام معروف غير مجهول ، وظاهر غير خفي ، يشهد بذلك عجز المتعاطين ، ووهن المتكلفين ، وتحير الكذابين ، وهو المبلغ الذى لا يمل ، والجديد الذى لا يخلق ، والحق الصادع ، والنور الساطع ، والماحي لظلم الضلال ، ولسان الصدق النافي للكذب ، ونذير قدمته الرحمة قبل الهلاك ، وناعي الدنيا المنقولة ، وبشير الآخرة المخلدة ، ومفتاح الخير ، ودليل الجنة ، ان أوجز كان كافياً ، وان أكثر كان مذكراً ، وان أومأ كان مقنعاً ، وان طال كان مفهماً ، وان أصر فناصحاً ، وان حكم فعادلا ، وان أخبر فصادقاً ، وان بين فشافياً ، سهل على الفهم ، صعب على المتعاطي ، قريب المأخذ ، بعيد المرام ، سراج تضيء به القلوب ، حلو اذا تذوقته العقول ، بحر العلوم ، وديوان الحكم ، وجوهر الكلم ، ونزهة المتوسمين ، وروح قلوب المؤمنين ، نزل به الروح الامين ، على محمد خاتم النبيين ، فخصم الباطل ، وصدع بالحق ، وألف من النفرة ، وأنقذ من الهلكة ، فوصل الله له النصر ، واضرع به خد الكفر ) .

القرآن : هو الكتاب الذي أخرج للناس هدى لهم وتطهيراً لنفوسهم ، وقواعد لقيام مجتمعهم ، وصلاح أمور دنياهم ومعادهم ، وهو القانون الذي يحض الناس على الحضارة ويذكرهم بحياة ثانية رغيدة ان أحسن التصرف في الاولى ، ثم ما وعد به الناس من الخير في الاخرى ، وهو يضرب الامثال للحاضرين بالغابرين ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويشتمل على أنواع من الاعمال كلفت بها العباد ، ومشروعات لتكوين البيوت والاسرة ، وهي ما يتعلق بالنزاع والطلاق والمواريث والانساب ، ومشروعات لبيان العقوبات على الجرائم وهي الحدود والقصاص ، ومشروعات عن التشريع الاجتماعي الذي جعل الناس عائلة واحدة،ومشروعات عن التشريع السياسي والحربي.

القرآن : كما قال عنه رسول الله (ص) : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم

وحبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه على خيار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الاهواء ، ولا تلبس به الالسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الترداد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا : « انا سمعنا قرآناً عجباً يهدي الى الرشد فآمنا به » ومن قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى اليه هدي الى صراط مستقيم .

القرآن هو الذي عبد به الله في كل مكان ، وذل له كل سلطان ، حاربت باسمه الجيوش وثلت به أقوى العروش ، هو الذى يتغير كل شيء وهو محفوظ ، وتدرس كل شريعة وشريعته قائمة الصوى والاعلام ، ولا تزال الايام تمدنا بالحجة على انه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

وقد قال ابن مسعود : اذا أردتم العلم فأثيروا القرآن فان فيه علم الاولين والآخرين .

# الوحي

يطلق الوحي في اللغه على معان : منها الرسالة فيقال : أوحى اليه وحيا بمعنى أرسل اليه رسالة ، ومنها الالهام والكلام الخفي فيقال : أوحى اليه أي أومى اليه •

والوحي شرعاً : معرفة يجدها المرء في نفسه مع اليقين انها من قبل الله تعالى بواسطة سمع أو غيره أو بلا واسطة •

والوحي يطلق على امور[1] :

١ ـ أن يلهم الله رسله ما يشاء من أحكام وغيرها ، بمعنى أن يلقنهم أياها على وجه لا يحتمل الخطأ •

٢ ـ الرؤيا في المنام ، فاذا أمر الرسول في نومه بأمر من قبل الله عز وجل أو نهي عن أمر أو أخبر بخبر ، فانه يكون وحياً صادقاً لاشك فيه • ومن ذلك ما رآه ابراهيم في نومه من ذبح ولده اسماعيل ، وما روي من ان نبينا محمداً (ص) كان اذا رأى رؤيا جاءت كفلق الصبح •• ويعلل الفلاسفة ذلك بان الروح الانسانية التي تدرك وتدبر الانسان مجردة عن المواد الحيوانية ، فهي أمر معنوي ، ومتعلقة بالانسان تعلقاً معنوياً لتدبره وتتصرف في أموره ، ومن شأن المجرد الاطلاع على الامور الغيبية ، ولكن اشتغال الروح حال اليقظة بتدبير البدن يحول بينها وبين الاطلاع على الغيب ، فاذا نام الانسان وانصرفت عن تدبيره واتصلت بالملأ الاعلى كما هو شأنها : فاذا كانت صافية غير ملوثة بالشهوات الفاسدة كان ادراكها للغيب كاملا ، وكانت الصور

---

(١) ملخص عن مجلة الازهر •

التي تدركها هي بعينها التي ستقع بدون تغيير ما ، كما هو الحال في الانبياء والرسل واتباعهم الصالحين ، أما اذا كانت الروح ملوثة بالشهوات الفاسدة واللذات المحرمة ، فان صفاءها يتغير بهذه الشهوات ، ويكون مثلها كمثل المرآة التي يعلوها الصدأ فلا تنطبع فيها الصور على وجه صحيح ، كما هو الحال في غير الانبياء والصالحين • وهذا تعليل حسن معقول ، وقد أقره صاحب الفتوحات المكية في مبحث الرؤيا ، وابان فيها الفرق بين الرؤيا بهذا المعنى ، والرؤيا بمعنى طرد الصور المخزونة في الدماغ ، وهي التي تدرك بالحواس في حال اليقظة واذا نام الانسان تمثلت له في صورة مختلفة ، فالرؤيا تارة تكون متعلقة بأمر قد وقع قبل النوم وبقيت صورته في الدماغ ، وتارة تكون متعلقة بأمر لم يقع اصلا •

٣ ـ أن يكلم الله الرسل من وراء حجاب ، كما وقع لموسى صلوات الله عليه ، وقد اتفق علماء التوحيد على ان الله سبحانه منزه عن المكان والجهة ، وعلى انه تعالى منزه عن الكلام اللفظي المشتمل على الحروف والاصوات ، وعلى انه تعالى لا تدركه الابصار ، وقد خلق الله تعالى لموسى عليه السلام قوة ادراك كلامه وافهمه اياه بالوسائل التي أرادها •

٤ ـ ان يرسل الله تعالى ملكا الى انبيائه ليبلغهم ما يشاء وهذا هو الغالب كما صرحت به الاحاديث الصحيحة •

قال الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد : وقد عرفوه شرعاً ـ أي الوحي ـ انه اعلام الله تعالى لنبي من انبيائه بحكم شرعي ونحوه • أما نحن فنعرفه على شرطنا بانه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بانه من

قبل الله بواسطة أو بغير واسطة • والاول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ويفرق بينه وبين الالهام بان الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور •

الى أن قال : أي استحالة في الوحي ، وان ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم ان ذلك من قبل واهب الفكر ، ومانح النظر متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة •

مما شهدت به البديهة ان درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا ، وان الادنى منها لا يدرك ما عليه الاعلى الا على وجه من الاجمال ، وان ذلك ليس لتفاوت المراتب في التعليم فقط بل لابد معه من التفاوت في الفطر التي لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه ، ولا شبهة في ان من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهي عند من هو ارقى منه • ولا تزال امراتب ترتقي في ذلك الى ما لا يحصره العدد ، وان من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها قريباً فيسعى اليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ثم يألفون ما صار اليه كأنه من المعروف الذي لا ينازع ، والظاهر الذي لا يجاحد • فاذا انكره منكر ثاروا عليه ، ثورتهم في بادىء الامر على من دعاهم اليه ، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهراً في كل أمة الى اليوم •

فاذا سلم ( ولا محيص عن التسليم ) ما أسلفناه من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها أن لا يسلم بان من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالهي لان تتصل بالافق الاعلى ، وتنتهي من الانسانية الى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ، ما لم يصل

غيرها الى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحاً على ما يتلقاه احدنا عن اساتذة التعاليم ، ثم تصدر عن ذلك العلم الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما حملت على ابلاغه اليهم ، وان يكون ذلك سنة الله في كل أمة وفي كل زمان على حسب الحاجة يظهر برحمته من يختصه بعنايته ليفي للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحته الى أن يبلغ النوع الانساني أشده فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة •

وقال الشيخ يوسف الدجوي في كتابه تنبيه المؤمنين ما ملخصه :

أما الوحي الذي يجهله كثير من الناس أو لا يكاد يصدق به لعدم تصوره اياه حتى قال لي بعض الكبراء : لو انحلت مشكلة الوحي لزالت عقبات كثيرة تعترضنا في سبيل التصديق بالنبوة فانه لا يمكننا أو لا يمكن ابناء هذا العصر الحاضر ان يصدقوا بما لم يفهموا ••

نقول أما الوحي الذي بلغ من الصعوبة في بعض العقول هذا المبلغ فأمره واضح الا عند من يقف مع ما ألف ولا يؤمن الا بما عرف ، فان الوحي عبارة عن القاء الملك في الروع شيئا من الاشياء ، ومن ذا ينكر الالهام الذى يقع في القلوب المستعدة بغير نظر وفكر في كل الطبقات من أفراد هذا النوع حتى الطبقات الدنيا منها فيما هو مستعد له فضلا عن العليا ، وقد اثبت ذلك المناطقة وسموه حدساً وقالوا ان الحدس ليس فيه ترتيب أمور معلومة ليتوصل بها الى أمر مجهول كما هو شأن النظريات ولهذا جعلوا الحدسيات من الضروريات ، ثم نقول من ذا الذي يجعل المعارف الانسانية كلها قصرا على ماينتجه الفكر والنظر بعدما أثبت علماء التنويم المغناطيسي بالادلة المحسوسة التي يمكن كل انسان أن يشاهدها أن المنوم بعد أن يبطل حسه وتتخدر أعصابه تخدرا

تاماً فلا يمكنه أن ينظر أو يفكر حتى انه لا يسمع أصوات المدافـــع ولا يتأثر بشيء من الاشياء ، يأتي في هذا الحال بما لا يصل اليـه فكر ولا نظر ، وقد أصبح الجدال في ذلك جدالا في المحسوس فلا حاجة للاطالـة فيه والاستدلال عليه بل نقول : من ذا الذي ينكر الرؤيا الصادقة وقـد وجدت في كل أمة واثبتها علماء كل ملة بعد التجربة والمعاينة ، والمقـــام لايحتمل كثرة الاستشهاد ، على ان من لا ينفعه القليل لا يفيــده الكثير ، ولا بأس أن نقول للمؤمنين بالقرآن ان سورة يوسف فيهـــا من الرؤيـا الصادقة : ( رؤيا يوسف عليه السلام ورؤيا الملك ) وان شئت فقل رؤيـا صاحبي السجن ، وعلماء الارواح الآن يثبتون ما هو اكثر من هذا .

أما الملك الذي ينزل بالوحي ويكلم الارواح فلا معنى لانكـــاره والحكم بعدم وجوده فان الحجة في ذلك الانكار انما هو كون العلم لايثبته ـ كما يقولون ـ وهل كل ما لم يصل اليه العلم غير موجود ( اللهم ان العلم نفسه يكذب ذلك ) فقد كنا نجهل الميكروبات منذ زمان قريب ، أفكـان جهلنا بها موجباً لعدم وجودها .. أم كانت موجودة في الواقع على الرغم من هذا الجهل ، وأي معنى للبحث والتنقيب الذي يتقدم به العلم يوماً فيوماً اذا كان الامر على ما ظنوا .

ومن ذلك الجاهل الذي يزعم انه أحاط بكل العوالم وعـرف ما في الوجود .

ألم يقرر العلماء والفلاسفة ان عدم الدليل ليس دليلا على عـــدم الدليل ، على ان علماء الاسبرتزم ( استحضار الارواح ) الذين اشـــتغلوا بالمسائل الروحية أثبتوا بالمشاهدات المتكررة والحوادث المتواترة ان هناك عالماً وراء عالم الطبيعة قد خرق لهم كل نواميس المادة وما قرروه من ذلك ، وقد أصبح ذلك عندهم لمس اليد ورأي العين . فاذا كان ذلك معقولا بـل

محسوساً في غير الانبياء فما بالك بالانبياء وهم المثل الاعلى لذلك النوع •

هذا وقد ذكر علماؤنا للوحي كيفيات كثيرة ولكن نقتصر منها على كيفتين ذكرهما الحديث الصحيح الذي رواه الامام البخاري وهما في غاية الوضوح لكل من يريد الحق لا التعصب والعناد • أحدهما ان يرتفع النبي (ص) عن المستوى البشري الى المستوى الملكي ( وروحه الشريفة مستعدة لذلك تمام الاستعداد فان علاقتها بالملأ الاعلى أكثر وأتم من علاقتها بعالم المحسوسات ) • والروح في اصل خلقتها مناسبة لخلقة الملك وربما كانت أرفع منه قدراً واعظم منه سراً ، والملك اذ ذاك يكون على حالته الملكية ولكن يصح ان يراه الرسول وهو على هذا الحال لانه انما ينظر اليه ببصر الروح عند تجرده عن الغواشي البدنية ومفارقته للعوالم المادية ، واما جلساؤه فلا يرونه لانهم لم يتجردوا من ملابسهم الطبيعية ومحيطاتهم الكونية ، ويقرب هذا بعض التقريب ما نشاهده من أحوال المنوم تنويماً مغناطيسياً فانه يرى ما لا يراه الحاضرون لان اللسان فيه للروح فهو يرى حواسها لا بحواس البدن ، وأما حاضروه فالمستولي عليهم هو سلطان الجسم لا سلطان الروح • ونقربه من وجه آخر فنقول :

لا بدع في تغير الاحكام بتغير الاطوار والاحوال حتى نصل الى حد التباين ، فان الثلج اذا كان جامدا كان له حكم الجامدات ، فاذا أذبناه بقليل من الحرارة كان له حكم السوائل ، فاذا صيرناه غازاً كان له حكم الغازات ، واذا فما الذي يستنكر من تغير الاحكام بتغير الاحوال • ويكفي هذا لمن أنصف ولم يتعسف •

أما الكيفية الثانية للوحي فهي أن يتنزل الملك من سماء الملكية الى ارض البشرية فيتمثل رجلا فيكلم النبي بلسان الاشباح لا بلسان الارواح ،

وفي هذا الحال يراه كل من حضر ويكون النبي على حالته العادية وصفاته البشرية ( كما في حديث الاسلام والايمان والاحسان[1] .

وقد أعطي الملك القدرة على هذا التمثل ، ولا معنى لان تنكر ذلك قياساً على ما تعلمه من نفسك ، فانك لا تعرف الا أحكام عالمك ، ومن الغلط البين أو الجهل الشائن ان تحكم بأحكام عالم على آخر .

وقال الاستاذ محمد فريد وجدي في بحثه عن السيرة المحمدية ما ملخصه :

النبوة مرتبة روحية يستأهل بها صاحبها ان يتلقى العلم عن الله بدون وساطة العقل والحواس على ضروب شتى ، أما القاء في الروع ، أو بتوسط ملك يتمثل في صورة بشرية ، أو في اثناء النوم على حالة رؤيا ، أو غيرها ، ويسمى هذا الاسلوب التعليمي المخالف للسنن العادية وحياً .

هذه النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ويسمى نبياً وقد تكون مقترنة بتكليف تقويم أود جماعة من الناس ، فيسمى هذا التكليف رسالة ، ويدعى صاحبها رسولا ، وقد سجل تاريخ البشر اسماء عدد كبير من الانبياء ، ومثله من المرسلين في جميع ادوار الانسانية .

وقد أجمع هؤلاء الانبياء والمرسلون على انهم يتلقون معارفهم من طريق الوحي ، وانهم انما يدلون الى الناس بما أمروا ان يدلوا به اليهم ، وأوصوا بالثبات عليه ، والاستمرار فيه وان غضب الناس منهم ، وتألبوا على

---

(١) محصل ذلك الحديث ان سيدنا جبريل جاء في صورة اعرابي فجلس أمام النبي (ص) فسأله عن الاسلام والايمان والاحسان وعن الساعة وامارتها فأجابه عن كل ذلك .

اضطهادهم • وقد أوذي وقتل منهم عدد كبير ، وبلوا قبل قتلهم بجميع ضروب المثبطات ، فلم يزدادوا الا اقداما ومضيا •

الادلة المنطقية على صحة النبوة وامكان الوحي كثيرة ، ولكن العقلية العصرية يصعب عليها ان تقتنع بها ، فان الفلسفية المادية قد اثارت شبهات جمة على النبوات ، ونفت وجود العالم الروحاني ، وقد تسربت هذه الفلسفة الى عقول الناس من مصادر عدة ، لذلك وجب على من يعالج مسألة النبوة والوحي ان يعدل عن الاستاد على الادلة المنطقية الى الادلة العلمية • ونحن قد انتدبنا لخوض غمار هذه المسألة ، نرى ان نتوجه الى تحقيقها من ثلاث نواح :

١ ـ هل في الوجود المحسوس ما يدل على حدوث معرفة لبعض الكائنات نفثاً في الروع من غير طريق الحواس ومستقلة عن المحاولات العقلية ؟

٢ ـ هل توجد حوادث انسانية يقرها العلم نفسه نثبت وجود اتصال باطني بين النفس وبين عالم ارقى منها ؟

٣ ـ هل يمكن ان يعترف العلم بوجود عالم روحاني فوق عالم المادة يسوغ اعتبار النبوة والوحي امرا ممكنا ؟

فالجواب عن السؤال الاول هو الهام الحيوانات والعبقرية •

فاما الهام الحيوانات ، فقد شهد المتأملون في حياة الحيوانات من لدن اقدم عهود العلم ان للحيوانات ، وخاصة الحقيرة الساذجة منها ، اعمالا في تطلب اغذيتها ، وبناء اكنتها ، واحتضان بويضاتها ، وتربية صغارها ، تقصر ادراكاتها القاصرة عن الاهتداء اليها لو تركت وشأنها • وانا عارضون على قرائنا بعضا منها :

الفراش متى وصل الى الطور الثالث من حياته يضع بيضه على هيئة دوائر على الاوراق الخضراء ، وهذا البيض لا يفقس الا في الفصل التالي ، فيخرج ما فيه على هيئة ديدان صغيرة في الوقت الذي تكون فيه امهاتها قد ماتت ، أي انها لا تراها ، فمن الذي علم اناث الفراش ان صغارها متى خرجت احتاجت الى التغذي بالنباتات الخضراء ؟ ومن الذي هداها الى وضع بيضها على تلك النباتات ولم تلق بها في أي مكان آخر ؟ فلم يبق الا القول بانها الهمت هذه الاعمال من القدرة العليا التي ابدعتها .

والحشرات المسماة ( نيكروفور ) تموت بعد ان تبيض مباشرة ، أي انها لم تر لها ذرية قط ، ولكنها قبل ان تبيض تعني كل العناية بوضع جثث حيوانية تضعها بجانب البيض لتكون غذاء لصغارها متى خرجت . فمن الذي ادرى هذه الحشرات ان في بيضها صغارا ، وان تلك الصغار ستخرج في حاجة الى الغذاء ، وان ما تحتاج اليه هي تلك الجثث الحيوانية ؟ .

والحيوانات المسماة اوديتبرو ( سفكس ) تخرج صغارها من بويضاتها محتاجة الى التغذي باجساد حيوانات ( حية ) ، فترى امهاتها تعمد الى اصطياد حيوانات لا تقتلها ولكن تضربها في مجمع اعصابها بحيث تمنعها الحركة ، وتركمها بعضها على بعض على تلك الحالة من العجز ، فاذا خرج صغارها وجدت امامها غذاءها الضروري لها .

وان الحيوانات المسماة ( اكسيكلوب ) تعيش منفردة وتموت بعد ان تبيض اناثها مباشرة . تخرج صغارها على حالة ديدان لا ارجل لها ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ولا الحصول على غذائها ، ومع ذلك فحياتها تقتضي ان تعيش مدة سنة في مسكن مقفل وفي هدوء تام والا هلكت. فترى الأم متى حان وقت بيضها تعمد الى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا ، فاذا أتمته أخذت في جلب ذخيرة اليه تكفي صغيرا واحدا

مدة سنة ، تلك الذخيرة هي طلع الازهار وبعض الاوراق السكرية ، فتحشوها في قاع السرداب ثم تضع عليه بيضة واحدة ثم تأتي بنشارة الخشب وتكون منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضة ، ثم تأتي بذخيرة أخرى فتضعها فوق ذلك السقف ، ثم تضع بيضة أخرى ، وهلم جرا حتى يفرغ بيضها ، ثم تترك الكل وتموت . فمن علم هذه الحشرة الضعيفة الساذجة هذه الصناعة المحيرة للعقل ؟ ومن افهمها وهي تموت بعد ان تبيض مباشرة ان صغارها في حاجة الى البقاء سنة في حالة ضعف وعجز ؟ ومن الذي غرس في قلبها هذه العناية بنوعها حتى كلفتها كل هذه المشقة في وضع بويضاتها ؟

هذه الالهامات دليل محسوس على ان قيم الوجود يؤتي الكائنات علما بما يقيمها ويصلحها من غير طريق الحواس التي لا تستطيع ان تكتسبه بها ، واذا صح هذا في عالم الحيوان فهو اولى بان يصح في عالم الانسان ، حيث اتصالاته بالافق الاعلى تكون أقوى ، واستعداده للقبول منها اكبر .

وقد قرر علماء الطبيعة ان هذه المعارف الفطرية لدى الكائنات الحية هي الهامات الهية لاشك فيها .

وشوهد في تاريخ البشرية حدوث تجديدات عقلية أو فنية في ارفع درجات السمو ولا يمكن تقليدها ، يؤكد الذين ظهرت على ايديهم انها أتتهم عفوا بدون اجالة نظر فيها ولا اقل محاولة منهم لاحداثها بل لم تكن تخطر لهم على بال ، وهي تظهر شذوذاً وبدون تمهيد . وقد تمر اجيال دون ان يظهر في أي بقعة من الارض عبقري واحد . واصحاب العبقرية في مجموع تاريخ النوع الانساني يعدون على الاصابع وقد اعتبرها الفلاسفة الاقدمون حالات علوية لا شأن للعقل فيها ، وليس المعاصرون لنا باقل من الاقدمين اكباراً للعبقرية ، وجنوحا الى نسبتها الى الذات الالهية .

ثم سرد الاستاذ اقوال اعاظم علماء اوربا وفلاسفتها في تأييد ذلك •

ثم قال : وانا لا اريد ان اثبت بما انقله ان النبوة عبقرية ، أو هي من نوع الحوادث التي سردناها هنا ، ولكنا سقنا ما سقناه للتدليل على امرين عظيمين :

أولهما : وجود الهداية والتعليم بدون وساطة العقل العادي والحواس كما تدل عليه حياة الحيوان بجملتها ، والعبقرية بما آتت الناس من الابتكارات التي لم يهد اليها عقل ولم يحم حولها فكر ، على حالة خارقة للعادة •

ثانيهما : وجود اتصالات روحانية باطنية تمد الانسان بعلم ، وتسعفه بهداية من غير طريق العقل العادي ، ولا من منافذ الحواس الخمس ، تقريبا للوحي من عقول الناس ، فقد اشتد شكهم فيه الى حد ان كذبوا النبوات وهي اعظم عوامل الانتقالات الفكرية والاجتماعية للنوع الانساني ، وقد ابتنت عليها اكبر الاحداث التي غيرت مجرى الشؤون العالمية في جميع الادوار الانقلابية ، وليس مما يعقل او يناسب كرامة النوع البشري ان تكون هذه العوامل العلوية البعيدة الاثر في حياته قد قامت على اكاذيب متعمدة ، او اوهام فكرية •

ومن العبث المحض ان يثبت الباحث الطبيعي الهاما تبعثه القدرة الالهية في احقر الحشرات ، وينفيه عن النوع البشري ، وهو في اشد الحاجة اليه في اول عهده بالحياة الاجتماعية ، وفي اثناء تطوراته في ادوار تلك الحياة المتعاقبة •

واني اظن بأني بما اثبته قد قربت للعقول حدوث الوحي لمن صرحوا للناس بانهم انبياء او مرسلون ، وحققت الحوادث صدقهم فيما دعوا اليه وحذروا منه •

ان موقف العلم والذين يعبون من منهله كان قبل الخمسين السنة الاخيرة موقف خصومة لكل معقول لا يمت الى المادة بسبب فكانت مسألة الوحي من المسائل التي يدحضها العلم بكل شدة ، ويعدها من ابعد المحالات العلمية ، ثقة منه ان ليس وراء المادة عالم ارقى منها ، بل ليست الروح البشرية التي تعتبر آية الخلق الا مظهراً من مظاهر المادة .

وقد تغير موقف جمهور كبير من اعلام العلماء اليوم حيال مسألة الروح الانسانية وعلاقتها بعالم علوي وراء الحس ، واستمدادها منه قوة وسلطانا لا تحصل عليهما في عالم المادة مهما توسعت في علاقتها به ، وكان الباعث لهؤلاء العلماء على تغيير آرائهم ، وانكبابهم منذ نحو تسعين سنة على البحث في النفس الانسانية من طريق التنويم المغناطيسي والذهول الذي يقع فيه بعض الناس فيصيرون به اداة لحدوث ظواهر خارقة للعادة ليس لهم فيها أقل تأثير .

فالتنويم المغناطيسي قد اثبت للانسان عقلا باطنيا ارقى من عقله العادي كثيراً ، وانه وهو في تلك الحالة يرى ويسمع من بعد شاسع ما يحدث وما يقال ، ويقرأ من وراء حجب ، ويخبر عما سيحدث ، مما لا توجد في عالم الحس اقل علامة لحدوثه ، شاهد هذه الاحوال ملايين من الناس حتى اصبحت امراً لا يمكن المراء فيه .

ان جمهوراً كبيراً من علماء الارض اصبحوا يعتقدون بوجود عالم روحاني ، وبوجود اتصال وثيق بينه وبين الروح الانسانية ، وان ذلك يظهر بوضوح في حالة النوم المغناطيسي وحالة الذهول التي يقع فيه بعض الناس بسبب مرض او بسبب استعداد عصبي فيهم ثم ختم بحثه بالعبارات التالية :

يرى قراؤنا مما قدمناه ان العلماء المنصرفين لدراسة الكون والكونيات قد ظهر لهم عقب حدوث اكتشافات خطيرة لم تكن تخطر لهم ببال ، ان حدود العلم لاتزال بعيدة عنهم ، وان كل ما حصلوه منه لا يعدو العلاقات

الموجودة بين بعض ما يقـع تحت حسهم من الموجودات ، امـا كنـه تلك الموجودات وحقيقة النواميس التي تدبرها ، فلا يزال امرها مجهولا ، وقد تجلى لهم ان من الحماقة وضع حد للممكنات ، والتـكذيب بما لم يحيطوا بعلمه من المجهولات .

ثم يرى قراؤنا ايضا ان طائفة من أماثل هؤلاء العلماء ، قد وقفوا منذ تسعين سنة عقب ظهور حوادث محققة تدل على وجود عالم وراء العـالم المحسوس ، الى التنقيب عن حقيقة ذلك العالم ، جارين على اسلوبهم العلمي من المشاهدة والتجربة ، فوقفوا على امـور لم يـكن يدور في خلد أحد ان اقطاب العلم المادي يعودون فيثبتون وجودها وقد سبق لهم نفيها ، والتشنيع على القائلين بها من الشؤون الروحانية .

ولسنا نريد ان نثبت امكان الوحي بالاستناد الى اكتشافات هؤلاء العلماء في عالم ما وراء الطبيعة ، فقد اثبتنا وجوده بالحس من الغرائز التي طبعت عليها الحيوانات ، ومن حوادث العبقريـات ، ولكننا نستأنس بهـا في بحثنـا هـذا ، ادلالا على ان الانسـانية قد اجتازت دور الافتتان بالماديات ، وبدأت تدخل الى عهد من الحياة تتفق فيهـا فتوحـات الـروح من طريق النبوة ، وفتوحات العقل من طريق العلم ، فتسـتقيم على الجادة التي توصلهـا الى كمالها المرجو لها ، خالصة من الشبهات الرائنة على الصدور ، والشـكوك المحيرة للعقول .

# الملائكة

قال الاستاذ الشيخ عبدالرحمن الجزيري ما ملخصه :

اما الملائكة ـ الذين هم واسطة بين الله ورسله ـ فقد اتفق المسلمون وغيرهم من اهل الكتاب على ان لله ملائكة ، ولكنهم اختلفوا في بيان معنى الملك ، وجمهور علماء الكلام والحديث يقولون ان الملائكة مخلوقة من مادة • أما فلاسفة الاسلام فانهم يقولون انها مجردة عن المادة ، وسواءاً كانت مادية أم مجردة عن المادة ، فقد اتفقوا على ان لها قدرة على التشكل في صور مختلفة ، وقد عرفها المتكلمون والمحدثون بأنها اجسام هوائية لطيفة تقدر على التشكل بأشكال مختلفة • وبعضهم عرفها بأنها اجسام نورانية تقدر على التشكل • ولعلهم يريدون أنها مخلوقة من مادة الهواء ولكن قد جملهم الله فجعلهم كالنور • أما فلاسفة الاسلام فانهم يقولون انها مجردة عن المادة كالروح الانسانية ، ولكنهم يقولون ان الله تعالى يلبس كل ملك الصورة التي يريدها ، ومن ذلك قوله تعالى : « جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة » •

وبيان ذلك : أن الفلاسفة يقولون ان العالم منه ما هو مجرد عن المادة، ومنه ما هو مادي ، وليس من المعقول انكار المجردات عن المادة مع كون الانسان نفسه مشتملا على كثير من الامور المعنوية الوجودية المجردة عن المادة • وكيف تنكر المجردات مع كون الالفاظ التي ينطق بها الانسان لها معان ثانية وهي مجردة عن المادة ، وكذلك الحب والغضب والفرح ونحو ذلك من الامور التي يترتب عليها آثار ظاهرة مع كونها أموراً معنوية صرفة لا يمكن لأحد أن يعرف حقيقتها • واذا ثبت أن بين الممكنات المحسة أموراً معنوية لا يمكن لأحد أن يدرك ماهيتها ولا يحكم عليها بالتحيز في المكان ونحوه مما تستلزمه المادة ، فلا معنى للحكم بأن كل شيء مادي • ولهذا

ذهب بعض فلاسفة الاسلام ( ومنهم الامام الغزالي ) فقالوا : ان الروح الانسانية مجردة عن المادة ، وانها متعلقة بالبدن تعلقاً معنوياً كتعلق العاشق بمعشوقه ، فكما أن علاقة العشق أمر معنوي لا يمكن لأحد أن يدرك حقيقتها فكذلك الروح الانسانية التي بها الادراك الكلي مجردة عن المادة ، ومثلها الملائكة . وهو الظاهر المعقول الذي يؤيده ظاهر القرآن الكريم ، فقد قال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » ، وهذه الاجابة تدل دلالة واضحة على أن الروح ليست مادية ، لأنها لو كانت كذلك لأوحى الله الى نبيه معناها المادي خصوصاً في مقام التحدي ، لأنهم كانوا يريدون أن يتحدوا رسول الله (ص) بهذا السؤال ، ولذا قال بعد هذا : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » فهو سبحانه خاطب السائلين من أهل الكتاب وغيرهم من المسلمين بأنهم عاجزون عن ادراك حقيقة الروح وغيرها من الامور المعنوية التي خلقها الله تعالى ، بل هم عاجزون عن ادراك حقائق الامور المادية كذلك ، لأن الانسان عاجز عن العلم بحقائق الامور البسيطة التي يعجز عن تحليلها ، وكل ما يستطيع هو معرفة أجزاء المركبات من عناصر مختلفة ، حتى اذا انتهى الى أجزائها التي لا يمكن تحليلها وقف عند هذا الحد من العلم . وقد اقتضت حكمة الله سبحانه أن لا يجعل النوع الانساني حاجة الى معرفة حقائق الأشياء ، بل جعل حاجته الى خواصها ومزاياها . فالانسان من حيث هو انسان ليس في استعداده ادراك حقيقة الأجزاء التي ينتهي اليها تحليل المركبات المادية ، وكل ما يمكن أن يعلمه الانسان انما هو خصائص هذه المركبات ومزاياها التي ينتفع بها النوع الانساني .

ومن هذا تعلم أن العالم الممكن منه ما هو مادي ومنه ما هو مجرد عن المادة ، والملائكة من المجردات ، ولها قدرة على التشكل بأشكال مختلفة . هذا هو رأي فلاسفة الاسلام .

أما المتكلمون والمحدثون فقد انكروا المجردات عن المادة بتاتاً وقالوا : لان المنزه عن المادة وعلائقها هو الله وحده ، ومع ذلك فقد قالوا ان الملائكة مع كونهم ماديين مخلوقين من الهواء فان لهم القــدرة على التشــكل بأشكال مختلفــة .

ولكن الفلاسفة الذين يقولون ان الملائكة مجردون عن المادة ، يقولون ان تعريف الملائكة بأنهم أجسام هوائية لطيفة يرد عليه أمران :

( احدهما ) أن الجسم اللطيف لا يقدر على الافعال الشاقة ، بل هــو يتلاشى بأقل قوة وبأدنى سبب يصل اليه من الخارج ، وهذا لا يتفق مــع ماورد من أن الملائكة لها قوة وبطش لاحد لهما بالنسبة لجميع الاجســام المخلوقــة .

والجواب : ان القوة والبطش وشدة البأس لا تتنافى مع الدقة واللطافة، لان الله تعالى قادر على أن يمنح اللطيف قوة عظيمة لايوجد عشر معشارهــا في الاجسام الضخمة . وذلك مشاهد محس في كثير من الاجسام ، فــان الانسان الرقيق القوام قد يأتي بأفعال شاقة عظيمة يعجز عن القيــام بها ذوو الاجسام الضخمة ، فانه قادر على أن يفتل الحديد ويكسر الحجر ويتسلط بقوته على صاحب الجسم الضخم ، بل نرى كثيرا من الحيوانات الرقيقــة القوام لها قوة تفتك بكثير من الحيوانات الضخمة . وهذا هو الاسد الصغير يمكنه أن يفتك بالجمل الغليظ ، وبالحمار الضخم وغيرهما من الحيوانات ، فالقوة لا تتبع الاجسام ولكنها في الواقع مستندة الى ارادة الاله القادر الــذي يفعل ما يشاء . وهذا الجواب حسن .

( ثانيهما ) أن يقال : ما فائدة تشكل الملائكة بأجسام قابلة للتأثر بمــا يتأثر به الجسم الانساني مع كون الوحي لا يستلزم هذا التشكل كما عرفت مما ذكرناه لك في معنى الوحي ؟ وقد يجاب عن هذا بأن تشكل الملك بشكل

الانسان لكون طبيعة الانسن لا تأنس عادة الا الى نوعه فالرسل صلوات الله عليهم وان كانوا قد يتصلون بربهم بدون واسطة ملك يتمثل في صورة الانسان ، ولكن مجيء الوحي في صورة انسان يستلزم زيادة أنس واطمئنان للرسول ، ولذا قال (ص) : ان أحسن الاحوال عنده هي الحالة التي كان يأتيه الوحي فيها في صورة دحية الكلبي ، وهي صورة رجل جميل من أصحابه • وذلك لان طبيعة الانسان مهما كان حاله من القرب بربه أكثر ميلا وأشد اطمئناناً الى تلقي الاوامر الالهية من انسان مثله • على ان سنة الله في خلقه قد اقتضت أن تكون أوامره ونواهيه بواسطة رسل من النوع الانساني غالباً ليقطع على المنكرين حجتهم ، ويسد عليهم باب العناد في طلبهم الاتصال بالاله مباشرة ، فكأنه سبحانه يقول لهم : ان هذا الرسول مع كونه من المقربين الي بشر مثلكم ، ولا يمكن ان أرسل اليه ملكا على الهيئة التي خلقته عليها ، لان الانسان من حيث هو انسان عاجز عن ادراك حقيقة الملك، وعاجز عن التفاهم معه كما لا يمكن لبشر أن يتصل به اتصالا مباشرا وهو على حالته المادية التي تحول بينه وبين المنزه عن جميع المواد وتحجبه عن ادراكه ، وبذلك يرد عليهم طلبهم الذي طلبوه عنادا •

ولهذا قال تعالى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » • وذلك لان المشركين اقترحوا أن يرسل الله مع محمد ملكا يبلغهم ، أو يأتيهم ملك بدون محمد ليبلغهم رسالة ربهم ، فرد الله عليهم ذلك بقوله « ولو جعلناه ملكا » الخ •

هذا هو اعتقاد علماء المسلمين وفلاسفتهم ، وهو لا ينافي القول بأن الارواح مجردة عن المادة ، لان المسلمين الذين يقولون بتجردها عن المادة يقولون انه لا مانع من ان هذا المجرد يتعلق بمادة ذات صورة من الصور المألوفة للرسول •

أما الفلاسفة الذين ينكرون تعلق المجردات القائمة بنفسها بمادة تشكل فيها بأشكال مختلفة فان قواعدهم لا تأبى أن تكون الملائكة أرواحا

مجردة عن المادة ، ولكنهم ينكرون نزول الوحي في صورة انسان أو غيرها من الصور . وهذا الانكار ليس مبنيا على استحالة عقلية ، بل كل ما قالوه في هذا المقام أن تشكل الملك في صورة انسان أو في صورة شيء له طنين كطنين الجرس ، برفع الثقة بالوحي لجواز أن يكون الملك نحلة تطن أو يكون انساناً آخر غير ملك . ولكن هذا الكلام صادر عن غفلة بمقام الرسول ، وجهل بالشرط الاساسي الذي تنبني عليه الرسالة ، وهو ان الرسول معصوم عن الخطأ في فهم جميع ما يأتيه من عند الله ، فمحال أن يشكل على الرسول أمر الملك ، ومحال أن يأتيه رجل آخر في صورة دحية أو غيره ويبلغه عن ربه كذباً . ومن هذا يتضح ان الملك سواء كان مجردا عن المادة أو كان مادياً فانه لا يأتي الرسول غالباً في صورته الحقيقة ، وقد عرفت أنه لا مانع من ان يلبس صورة بشر أو غيرها من الصور التي يريدها الله تعالى . والظاهر المعقول يؤيد فلاسفة الاسلام القائلين ان الملائكة مجردون عن المادة والله تعالى يلبسهم الصور التي يريدها .

أما الذين ينكرون وجود الملائكة رأسا فهم مارقون من الدين الاسلامي وغيره من الاديان التي لها كتاب ، وذلك يدل على أنهم قريبون من الماديين الذين ينكرون الاله وينكرون كل معنى من المعاني الغيبية ، فهم قوم لا يؤمنون بالغيب ، وبذلك يهدمون قواعد الاديان : من وجود اله ، ووجود يوم القيامة ، وغير ذلك . وهذا جهل وسخافة ، فان كثيرا من الامور المادية التي لم تكن مألوفة في زمن من الازمان وكان الاخبار بوجودها يكاد يكون مستحيلا عند أمثال هؤلاء ، قد أصبحت أمورا عادية يدركها الصغير والكبير ، كاللاسلكي ، فاننا قبل وجوده ما كنا نكاد نصدق بأن شخصاً يتكلم وراء البحار بكلمة فنسمعها بمجرد أن ينطق بها ، وغير ذلك من الامور التي جاء بها العلم ، فهي تدل على أن الله تعالى قد أودع في هذا العالم من الاسرار والحكم ما لا يحصيه الا هو ، سبحانه وتعالى ، كما قال : « ويخلق ما لا تعلمون » .

# نزول القرآن

اقتضت حكمة الله تعالى أن لا ينزل القرآن جملة واحدة بل منجماً مفرقاً ، فكانت آياته تنزل بحسب الوقائع والحوادث ومقتضيات الاحوال ، أو جواباً لاسئلة واستفتاءات ، وهذا ما يسهل حفظه وتعليقه على ما هو دون العادي من الحوافظ والملكات ، قال تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » . وكان جبريل عليه السلام يلقي على النبي (ص) ما يلقي من الآيات فينطبع في قلبه (ص) انطباعاً قسرياً ، وينقدح في نفسه انقداحاً لا تستطيع له رداً ولا تملك له تغييراً ولا تبديلا ، ولا يصيبها فيه اضطراب ولا خطأ ولا نسيان ولا زيادة ولا نقصان ، كما ينتقل الكلام من المتكلم الى لوحة الحاكي اذا نفخ في صورها بصوت تلقنه كاملا غير منقوص ثم تعيده كما نفخ فيها ، قال تعالى : « سنقرؤك فلا تنسى » .

ولنزول القرآن منجماً أسباب :

١ ـ ان نزوله جملة واحدة يفوت على المسلمين ذلك التشوف والترقب الذي هو اقوى الاسباب في سهولة حفظه عليهم ، ولا مراء في أن ما تترقبه النفس ترقباً يتمكن منها أكثر مما يفاجئها على غير ترقب وانتظار والله يريد أن يعيه المسلمون ويحفظوه .

٢ ـ أنه معجز في كله وفي أجزاءه ، وفي غالب أوقاته ينزل منه القدر المعجز ، فهو في منزلة تكرر الاعجاز بتكرر النزول ولا ريب في أن استمرار ذلك ٢٣ سنة أبلغ فيه من حصوله مرة واحدة .

٣ ـ انه مرب للامة في بلاغتها وبيانها فهو كل يوم يلقي عليها درساً جديدا في البلاغة والبيان .

٤ ـ ان العرب ليسوا سواء في البلاغـة وتناول الاحـكام منه ففي تنجيمه تيسير على متحفظيه ومستخرجي أحكامه •

د ـ أنه كان ينزل في الغالب بحسب الحوادث التي تعن للرسول (ص) فتكون فصل الخطاب في أحكام تلك الحوادث والمسائل المشكلة •

كما ان في انزاله منجما ما يسهل التكاليف على المؤمنين ، وما يزيد في بصيرتهم ، فان تنزيله متضمنا الاخبار عن الغيوب والفصاحة التامة بحسب الوقائع يزيد المبالغة في اعجازه اذ التحدي بما نزل منه أول الامر يجعل كل نجم متحدي به وعجزهم عن معارضة كل جزء أقطع دليلا على أنهم عن معارضة جميعه أعجز ، وان هـذا ما يزيد قوة في قلبه (ص) وخورا في عزائمهم[1] •

وكذلك لو أنزله تعالى جملة واحدة لكان استواؤه في الفصاحة والاعجاز آية قد يجوز على العقل فهمها ولكنه مع طول الزمان وتغاير المكان واختلاف الاحوال ظلت طبقته في الفصاحة واحدة مستوية فكانت آيته فوق طوق العقل وعلامة كلام الخالق الاعلى ، اذ لو كان من نفس ذات احساس بشري لتلونت آياته بتلون قائلها اذ ما يكون لبشر أن يمكث على حالة واحدة بضعا وعشرين سنة يمنح الكلام من نفسه على وتيرة مستوية ، والكلام كما يعرفه القراء لونه من لون متكلمه •

ونزل القرآن في خلال ثلاث وعشرين سنة وخمسة أشهر •

وكان أول ما نزل من الوحي بمكة قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم » وذلك عندما كان (ص) يتحنث في غار حراء يوم الاثنين

---

(١) الهداية الاسلامية •

١٧ من رمضان في السنة الحادية والاربعين من ميلاده لستة من آب ٦١٠ ميلادية لقوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « كان النبي (ص) يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فتزوده لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ ، فقال رسول الله (ص) فقلت : ما أنا بقاريء ، قال : فأخذني فغطني[1] حتى بلغ مني الجهد ، ثم ارسلني فقال : أقرأ ، فقلت ما انا بقاريء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم ارسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقاريء ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد فارسلني ، فقال ، اقرأ باسم ربك الذي خلق حتى بلغ ما لم يعلم ، فرجع بها رسول الله (ص) ترجف بوادره .

ولم ينزل بعد هذه الآية شيء من القرآن الكريم لمدة ثلاث سنوات ، وتسمى هذه المدة زمن ( فترة الوحي ) .

وبعد هذه المدة أخذ ينزل منجما لما في ذلك من التثبيت لفؤاده (ص) : « وقال الذين كفروا لو لا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » .

وكانت تنزل عليه (ص) بعض الآية كقوله تعالى : « فان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم » والآيات الخمس ، والعشر ، كما كانت تنزل السورة كلها مثل سورة الفاتحة ، والاخلاص ، والكوثر ، وتبت ولم يكن ، والعصر ، والمرسلات ، والمدثر .

---

(١) الغط : العصر الشديد .

آخر ما نزل منه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » وكان نزولها في حجة الوداع والناس وقوف بعرفة ، وكان بين نزول هذه الآية ووفاته (ص) واحد وثمانون يوماً لسنة احدى عشرة للهجرة •

---

## عهد نزول القرآن

نزل قسم من القرآن الحكيم بمكة ونواحيها وذلك قبل الهجرة وهي اثنتا عشرة سنة وخمسة اشهر وثلاثة عشر يوما من يوم ١٧ رمضان سنة ٤١ من ميلاده (ص) الى أول يوم من شهر ربيع الاول سنة ٥٤ من ميلاده • ويسمى هذا القسم بالسور المكية او المكي •

ونزل قسم آخر بالمدينة وذلك بعد هجرته (ص) من مكة الى المدينة وان نزل بغيرها ، ويسمى هذا القسم بالسور المدنية أو المدني •

وعدة سور القرآن الكريم (١١٤) اربع عشر ومائة سورة ، نزل منها بمكة المكرمة قبل الهجرة (٨٦) ست وثمانون سورة ، ونزل (٢٨) ثمان وعشرون سورة في المدينة المنورة ، واكثرها من السور الطوال •

وعدد آيات القرآن (٦٢١٧) على قول نافع ، و (٦٢١٤) عند شيبة ، و (٦٢٣٦) عند الكوفيين ، و (٦٢١٩) عند البصريين و ( ٦٢٢٦) عند الشاميين ، وذلك على حسب القواعد التي اتخذوها لعدد الآيات • وسبب ذلك ان النبي (ص) كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف فاذا علم محلها وصل للتمام فيحسب السامع حينئذ انها ليست فاصلة • وقد اختلف في عدد آي القرآن على حسب اختلاف العادين • والعدد منسوب الى خمسة بلدان وهي : مكة والمدينة والكوفة والبصرة والشام •

وعدد كلمات القرآن (٧٧٩٣٤) كلمة .

أما عدد حروف القرآن فقد اختلف في ذلك حسب القواعد الاملائية :

فقيل : « ٣٢١١٨٠ » حرفا

وقيل : « ٣٢٣٠١٥ » حرفا

وقيل : « ٣٢٣٦٧١ » حرفا

وقيل : « ٣٤٠٧٤٠ » حرفا

اما تفصيل الحروف فهي كما يلي :

الألف ـ ٤٨٧٤٠

الباء ١١٤٢٠

التاء ـ ١٤٠٤

الثاء ـ ١٠٤٨٠

الجيم ـ ٣٣٢٢

الحاء ـ ٤١٣٨

الخاء ـ ٢٥٠٣

الدال ـ ٥٩٩٨

الذال ـ ٤٩٣٤

الراء ـ ٢٢٠٦

الزاء ـ ١٦٨٠

السين ـ ٥٧٩٩

الشين ـ ٢١١٥

الصاد ـ ٢٧٨٠

الضاد ـ ١٨٨٢

الطاء ـ ١٢٠٤

الظاء ـ ٢٨٤

العين ـ ٩٤٧٠

الغين ـ ١٢٢٩

الفاء ـ ٩٨١٣

القاف ـ ٨٠٩٩

الكاف ـ ٨٠٢٢

اللام ـ ٣٣٩٢٢

الميم ـ ٢٨٩٢٢

النون ـ ١٧٠٠٠

الواو ـ ٢٥٥٠٦

الهاء ـ ٢٦٩٢٥

الالف واللام ـ ١٤٧٠٧

الياء ـ ٢٥٧١٧

فالسور المدنية الثمانية والعشرون هي :

البقرة [ الا الآية ٢٨١ فانها نزلت بمنى في حجة الوداع ] وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، [ الا الآية ٣ فانها نزلت بعرفات في حجة الوداع ] ، والانفال [ الا من آية ٣٠ الى غاية آية ٣٦ ] ، والتوبة [ الا الآيتين الاخيرتين ] ، والرعد والحج [ الا الآيات ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٦ فانها نزلت بين مكة والمدينة ] ، والنور ، والاحزاب ، ومحمد [ الا الآية ١٣ فقد نزلت في الطريق اثناء الهجرة ] والفتح ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، والتحريم ، والانسان ، والبينة ، والزلزلة ، والنصر .

السور المكية الست والثمانون هي :

الفاتحة ، والانعام ، [ الا الآيات ٢٠ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ فمدية ] والاعراف [ الا الآيات ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ و ١٦٦ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩ و ١٧٠ فمدنيـــة ] ، ويـونس [ الا الآيات ٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ فمدنية ] ، وهود [ الا الآيات ١٢ و ١٧ و ١١٤ فمدنية ] ، ويوسف [ الا الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٧ فمدنية ] ، وابراهيم [ الا آيتي ٢٨ و ٢٩ فمدنيتان ] والحجر [ الا الآية ٨٧ فمدنية ]، والنحل [ الا الآيات ١٢٦ و ١٢٧و ١٢٨ فمدنية ] ، والاسراء [ الا الآيات ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ فمدنية ] ، والكهف [ الا الآيات ٢٨ و ٨٣ و ٨٤ و ٨٥ و ٨٦ و ٨٧ و ٨٨ و ٨٩ و ٩٠ و ٩١ و ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ و ١٠١ فمدنيه ] ومريم [ الا آيتي ٥٨ و ٧١ فمدنيتان ] ، وطه [ الا آيتي ١٣٠ و ١٣١ فمدنيتان ] والانبياء ، والمؤمنون ، والفرقان [ الا الآيات ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ فمدنية ] ، والشعراء [ الا الآيات ١٩٧ و ٢٢٤ و ٢٢٥ و ٢٢٦ و ٢٢٧ فمدنية ] والنمل ، والقصص [ الا الآيات ٥٢ و ٥٣ و ٥٤ و ٥٥ فمدنية وآية ٨٥ فبالجحفة اثناء الهجرة ] ، والعنكبوت [ الا الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧ و ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ فمدنيـــة ] ، والـــروم [ الا آية ١٧ فمدنية ] ولقمان [ الا الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ فمدنية ] والسجدة [ الا الآيات ١٦ و ١٧و ١٨ و ١٩ و ٢٠ فمدنية ] ، وسبأ [ الا الآية ٦ فمدنية ] وفاطر ، ويس [ الا الآية ٤٥ فمدنية ] والصافات ، وص ، والزمـر [ الا الآيات ٥٢ و ٥٣ و٥٤ فمدنيـة ] وغافر [ الا آيتي ٥٦ و ٥٧ فمدنيتـان ] ، وفصلت ، والشورى [ الا الآيات ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ فمدنية ] والزخرف [ الا الآية ٥٤ فمدنية ] ، والدخان والجاثيـة [ الا الآيـة ١٤ فمدنية ] ،

والاحقاف [ الا الآيات ١٠ و ١٥ و ٣٥ فمدنية ] وق [ الا الآية ٣٨ فمدنية ]، والذاريات ، والطور ، والنجم [ الا الآية ٣٢ فمدنية ] والقمر [ الا الآيات ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ فمدنية ] ، والواقعة [ الا آيتي ٨١ و ٨٢ فمدنيتان ] والملك، والقلم [ الا الآيات ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و٢٣ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ فمدنية ] والحاقة ، والمعارج ، ونوح ، والجن ، والمزمل [ الا الآيات ١٠ و ١١ و ٢٠ فمدنية ] ، والمدثر ، والقيامة ، والمرسلات [ الا الآية ٤٨ فمدنية ] والنبأ ، والنازعات ، وعبس ، والتكوير ، والانفطار ، والمطففين ، والانشقاق ، والبروج ، والطارق ، والاعلى ، والغاشية ، والفجر ، والبلد ، والشمس ، والليل ، والضحى ، وألم نشرح والتين ، والعلق ، والقدر ، والعاديات ، والقارعة ، والتكاثر ، والعصر ، والهمزة ، والفيل ، وقريش ، والماعون [ الا الآيات ٤ و ٥ و ٦ و ٧ فمدنية ] • والكوثر ، والكافرون ، والمسد والاخلاص ، والفلق ، والناس •

# الفرق بين المكي والمدني

المكي من الآيات ما نزل قبل الهجرة سواء نزل في مكة نفسها أم في اطرافها ، حتى أن ما نزل في سفر الهجرة يعد مكياً •

والمدني من الآيات هو ما نزل بعد وصول النبي (ص) الى المدينة سواء بالمدينة نفسها أم في غيرها • هذا هو القول الراجح لدى العلماء •

ويمتاز المكي غالباً باشتماله على القواعد الكلية والاسس الاصلية ، وأهم ذلك :

١ ـ اثبات وجود الصانع وتمكين قواعد التوحيد بعد استئصال شأفة الشرك وعبادة الاوثان • ولما كان معظم العرب لدى ظهور الاسلام لاينكرون وجود الصانع وانما يشركون به غيره كانت معظم الآيات المكية ترمي الى اثبات الوحدانية وتبرهن عليها وتفند عقيدة الشرك وعبادة الاوثان ومحو كل ما يتصل بالاصنام من تحريم ما يذبح عليها أو له صلة بها : كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ومالم يذكر اسم الله عليه الى غير ذلك مما له صلة بالوثنية •

٢ ـ اثبات نبوته (ص) الى خلقه وانه رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وليخرج الناس من الظلمات الى النور •

٣ ـ اثبات الدار الآخرة التي يثاب فيها المحسنون ويعاقب الظالمون •

٤ ـ بيان الصفات والخصال التي تقرب العبد من ربه وتدخله دار ثوابه ، والخصال التي تبعد العبد من ربه وتهوي به الى دار عقابه •

٥ ـ الأمر باقامة الصلاة وايتاء الزكاة ولكن الصلاة قد فصلت بالمدينة•

٦ ـ الاذن بقتال الكافرين والمعاندين وهذا آخر ما نزل بمكة •

ويمتاز المدني بأمور أهمها :

١ ـ اشتماله على أخبار الغزوات وأسبابها وما الى ذلك .

٢ ـ فرض صلاة الجمعة وبيان صلاة الخوف .

٣ ـ فرض صوم رمضان .

٤ ـ فرض الحج .

٥ ـ بيان مصارف الزكاة .

٦ ـ نظام الاسرة . من زواج وتعدد زوجات ومن يصح تزوجها ومن لا يصح وحقوق الزوجين وواجباتهما وتفصيل المواريث .

٧ ـ وضع أسس المعاملات كالوفاء بالعقود ، والنهي عن أكل أموال الناس بالباطل ، وكيفية توثيق الدين وغير ذلك .

٨ ـ شرع الحدود كحد الزنى والقذف والسرقة وقطع السبيل .

٩ ـ القصاص سواء كان بالنفس أو بالاطراف .

وصيغة الخطاب في المكي تارة تكون بيا أيها النـــاس وتارة تكون بيا بني آدم . وفي المدني يغلب ان تكون بيا أيها الذين آمنوا .

وكل سورة فيها ذكر المنافقين مدنية الا العنكبوت لان المنافقين لـــم يكونوا بمكة وكل سورة فيها سجدة مكية الا الحج اذ الراجح انها مدنية ، كما أن كل سورة فيها كلمة ( كلا ) مكية لأن عبارات الزجر والردع انما تليق بالجبابرة سكان مكة .

وجاء في تفسير المنار ما ملخصه :

ان جل السور المكية في أصول الايمان الاعتقادية من الالهيات والوحي والرسالة والبعث والجزاء وغيرهما من عالم الغيب ، وقصص الرسل مـــع أقوامهم ، ويلي ذلك فيها اصول التشــريع الاجماليـــة العـامة ، والآداب

والفضائل الثابتة ، ويتخلل هذا وذاك محاجة المشركين ودعوتهم الى الايمان بتلك الاصول ودحض شبهاتهم ، وابطال ضلالاتهم ، وتشويه خرافاتهم •

أما السور المدنية فتكثر فيها قواعد الشرع التفصيلية ، وأحكام الفروع العملية ، بدلا من أصول العقائد الايمانية ، وقواعد التشريع العامة المجملة ، كما تكثر في بعضها محاجة أهل الكتاب ، وبيان ما ضلوا فيه عن هداية كتبهم ورسلهم ، ودعوتهم الى الايمان بخاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين • وفي بعضها ببان ضلالات المنافقين ومفاسدهم وكل من هذا وذاك يقابل ما في السور المكية من بيان بطلان الشرك وغواية أهله ••

وجاء فيه أيضاً :

أن أكثر السور المكيه لاسيما المنزلة في أوائل البعثة قوارع تصخ الجنان ، وتصدع الوجدان ، وتفزع القلوب الى استشعار الخوف ، وتدع العقول الى اطالة الفكر ، في الخطبين الغائب والعتيد ، والخطرين القريب والبعيد ، وهما عذاب الدنيا بالابادة والاستئصال أو الفتح الذاهب بالاستقلال وعذاب الآخرة وهو أشد وأقوى ، وأنكى وأخرى ، وبكل من هذا وذاك انذرت السور المكية اولئك المخاطبين اذا أصروا على شركهم ، ولم يرجعوا بدعوة الاسلام عن ضلالهم وأفكهم ، ويأخذوا بتلك الاصول المجملة التي هي الحنيفية السمحة السهلة ، وليست بالشيء الذي ينكره العقل ، أو يستثقله الطبع ، وانما ذلك تقليد الآباء والاجداد يصرف الناس عن سبيل الهدى والرشاد •

راجع تلك السور العزيزة ولاسيما قصار المفصل منها كالحاقة ما الحاقة ، والقارعة ما القارعة ، واذا وقعت الواقعة واذا الشمس كورت ، واذا السماء انفطرت ، واذا السماء انشقت ، واذا زلزلت الارض زلزالها ، والذاريات ذرواً ، والمرسلات عرفاً والنازعات غرقاً •

تلك السور التي كانت بنذرها ، وفهم القوم لبلاغتها وعبرها ، سبباً لفزعهم من سماع القرآن ، حتى يفروا من الداعي (ص) من مكان الى مكان ( ٧٤ : ٥٠ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ) ، ( ١١٥ : ٥ ألا انهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) ثم تنظر الى السور المكية الطوال فلا تجدها تخرج في الاوامر والنواهي عن حد الاجمال كقوله عزوجل ( ١٧ : ٢٣ وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً ) الى ٣٧ منها ، وقوله بعد اباحة الزينة وانكار تحريم الطيبات من الرزق ( ٧ : ٣٢ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون ) •

وأما السور المدنية ففي أسلوبها شيء من الاسهاب ولاسيما في مخاطبة أهل الكتاب لانهم أقل بلاغة وفهما من العرب الاصلاء ولاسيما قريش ، وما فيها من الكلام في أصول الدين أكثره محاجة لهم ( لأهل الكتاب ) ونعي عليهم واثبات لتحريفهم ما نزل اليهم ، وابتداعهم فيه واعراضهم عن هدايته ونسيانهم حظاً مما ذكروا به ، ودعوة لهم الى التوحيد الخالص توحيد الالوهية والربوبية ، وبيان لكون الاسلام الذي جاء به القرآن ، هو دين جميع الانبياء عليهم الصلاة والسلام •

وفي هذه السور المدنية أيضاً بيان لما لابد منه من الاحكام العملية في العبادات والمعاملات الشخصية والمدنية والسياسية والحربية ، ولاصول الحكومة الاسلامية والتشريع فيها ، كما تراه في طوال المفصل منها كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة •

وجاء في كتاب تاريخ التشريع الاسلامي للخضري ما يلي :

لكل من المكي والمدني مميزات متى عرفها المتعلم أمكنه التمييز بينهما منها :

أولا : ان آيات المكي على الجملة قصار بخلاف الآيات المدنية ، وشاهد ذلك أن السور المدنيـة تزيد قليـلا على ١١/٣٠ من القرآن وعدد آياتهـا (١٤٥٦) أي انها تزيد قليلا على ربع مجموع آياته ، ومن الأمثلة القريبة على ذلك جزء ( قد سمع ) كله مدني وعدد آياته (١٣٧) ، وجزء (تبارك) مكي وعدد آياته (٤٣١) ، وجزء (عم) مكي وعدد آياته (٥٧٠) .

ومن ذلك الانفال والشعراء كلتاهما نصف جزء من القرآن ، لـكن الاولى مدنية عدد آياتها ٧٥ والثانية مكية عدد آياتها ٢٢٧ .

وهذا المميز أغلبي فقـد يوجد في الآيات المكيـة طول واكثـره في السور الطوال .

ثانياً ـ خطاب الجمهور في الآيات المدنية يغلب أن يكون قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ، وقلما يرد بقوله : يا أيها الناس . وأمـا في خطابه في الآيات المكية فبالعكس ، ولم نر في السور المكية يا أيها الذين آمنوا . أما في السور المدنية فورد يا ايها الناس سبع مرات :

١ ـ يا ايها الناس اعبدوا ربكم (البقرة ٢٠) .

٢ ـ يا ايها الناس كلوا مما في الارض حلالا طيبا (البقرة ١٦٧) .

٣ ـ يا ايها الناس اتقوا ربكم (النساء ١) .

٤ ـ أن يشأ يذهبكم ايها الناس (النساء ١٣٣) .

٥ ـ يا ايها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم (النساء ١٧٠) .

٦ ـ يا ايها الناس قد جاءكم برهان من ربكم (النساء ١٧٤) .

٧ ـ يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى (الحجرات ١٣) .

ثالثاً : آيات المكي ليس فيها شيء من التشريع التفصيلي ، بل معظـم ما جاء فيها يرجع الى المقصد الاول من الدين وهو توحيد الله سبحانه وتعالى

واقامة البراهين على وجوده والتحذير من عذابه ووصف يوم الدين وأهواله ونعيمه والحث على مكارم الاخلاق التي بعث رسول الله (ص) ليكملها ، ثم ضرب الامثال بما أصاب الامم حينما خاطب ما دعاها اليه انبياؤها . أما التشريع التفصيلي فمعظمه وارد في الآيات المدنية .

وان التالي للآيات المكية ليجد فيها شدة لا يجدها في الآيات المدنية ، ذلك لان النبي كان بمكة مضطهدا قليل الناصر ، فكان بحاجة الى من يشد عضده ويربط على قلبه ، فجعل الله له قوة التبليغ ما يجعله يؤمن كل الايمان بفوز حقه على باطلهم وقهر دينه لوثنيتهم ، ومن أمثلة هذه الآيات قوله تعالى : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد » وقوله : « وليعلمن نبأه بعد حين » وقوله : « فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » وقوله : « قل رب اما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين » .

وأما الآيات المدنية فقد كانت في قص حوادث الغزوات واستخلاص العبرة منها للمسلمين ، كما كانت في بيان العبادات والمعاملات من صلاة الجمعة وصلاة الخوف والصيام والحج والزكاة والقصاص والزواج والميراث ، والتنبيه على آداب اجتماعية كآداب الاستئذان ورد التحية والنهي عن ابداء الزينة الى غير ذلك من الآداب التي لا يصلح الاجتماع بدونها .

# جمع القرآن

كان النبي (ص) عندما ينزل عليه الوحي وهو بين اصحابه تلا عليهم ما نزل عليه لساعته ، واذا نزل عليه في غير محضر القوم خرج اليهم فتلقوه منه وحفظوه عنه ، ثم يأمر كتاب وحيه بكتابة ما ينزل بين يديه من آي الذكر الحكيم في جرائد النخل والاكتاف وترتب الآيات حسب ارشاده (ص) الى مواضعها • قال مالك رضي الله عنه : انما الف القرآن على ما كانوا يسمعونه من رسول الله • وذكر ابو بكر الانباري في كتاب الرد : ان الله تعالى أنزل القرآن جملة الى سماء الدنيا ، ثم فرق على النبي (ص) في عشرين سنة ، وكانت السور تنزل في أمر يحدث ، والآية جوابا لمستخبر يسأل ويوقف جبريل رسول الله (ص) على موضع السورة والآية • بدليل أن النبي (ص) كان يقرأ سورا كاملة كالبقرة وآل عمران والنساء • وفي البخاري : أنه قرأ الاعراف في المغرب ، وقد أفلح المؤمنون في الصبح ، وهل أتى في صبح الجمعة أو خطبتها •

روي عن عثمان بن العاص رضي الله عنه انه قال : كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ شخص ببصره ثم صوبه ثم قال أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من السورة « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى » الآية •

فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، فكله عن محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام عن رب العالمين • فمن أخر سورة مقدمة ، أو قدم أخرى مؤخرة ، فهو كمن أفسد نظم الآيات وغير الحروف والكلمات ، ولا حجة على اهل الحق في تقدم البقرة على الانعام • والانعام نزلت قبل البقرة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ عنه هذا الترتيب ، وهو كان

يقول : ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن • وكان جبريل عليه السلام يقفه على مكان الآيات •

روى النيسابورى عن ابن عباس قال : كان رسول الله اذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال : ضعوا هذه السورة في الموضع الذي يذكر فيها كذا وكذا • وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم تنزل عليه السور ذوات العدد فكان اذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضع هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا • وأخرج البخاري عن ابن مسعود قال : والذي لا اله غيره ما نزلت آية من كتاب الله تعالى الا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت • وقال أيوب : سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن فقال نزلت في سفح ذلك الجبل وأشار الى سلع •

قال البغوي في شرح السنة : الصحابة رضي الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئاً خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته فكتبوه كما سمعوا من رسول الله من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل اياه على ذلك واعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا في سورة كذا ، فثبت ان سعي الصحابة كان في جمعه في موضع واحد لا في ترتيبه فان القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على هذا الترتيب أنزله الله جملة الى السماء الدنيا ثم كان ينزل مفرقاً عند الحاجة ، وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة •

قال زيد بن ثابت رضي الله عنه كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم

نؤلف القرآن في الرقاع •

وقد قال عليه الصلاة والسلام كما أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد :
لا تكتبوا شيئاً غير القرآن •

وقد كان كتاب الوحي على قول ستة وعشرين صحابيا ، وعلى قول اخر اثنين وأربعين صحابيا ، وأشهرهم : أبو بكر الصديق ، وعمر الفاوق ، وعثمان ذو النورين ، وعلي ابن ابي طالب ، وعامر بن فهيرة ، وأبي بن كعب ، وثابت بن قيس بن شماس ، ويزيد ابن ابي سفيان ، والزبير بن العوام ، والمغيرة بن شعبة ، وخالد بن الوليد ، والعلاء بن الحضرمي ، وعمرو بن العاص ، وعبدالله بن الحضرمي ، ومحمد بن سلمة ، وعبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول ، وابان بن سعيد ، والارقم ابن أبي الارقم ، وحنظلة بن الربيع الاسدي ، وخالد بن سعيد بن العاص ، وحبان بن سعيد بن العاص ، وعبدالله بن الارقم الزهري ، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح ، وشرحبيل بن حسنة ، ومعيقيب بن ابى فاطمة • رضي الله عنهم اجمعين • وأما معاوية ابن ابي سفيان ، وزيد بن ثابت رضي الله عنهما فكانا يلازمان الكتابة بين يدي النبي(ص) في الوحي وغيره لا عمل لهما غير ذلك ، وكان الذي يكتب من الوحي يوضع في بيت رسول الله (ص) ويكتب الكتاب لهم صورة ويدلهم النبي عليه الصلاة والسلام على موضعها من السورة •

وقد كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن على جريد النخل وصفائح الحجارة وعظام الاكتاف والاضلاع من الشياه والابل • كما كان النبي عليه الصلاة والسلام يرشدهم الى موضع كل آية من السورة التي ينبغي أن تكون فيها •

والمصاحف التي عرضت على النبي (ص) في حياتـــه وقرأت عليه ثلاث : مصحف عبدالله بن مسعود ، ومصحف ابي بن كعب ، ومصحف زيد بن ثابت وهو آخرها عرضا على النبي صلوات الله وسلامه عليه اذ كان في سنة وفاته وبقراءته كان يقرأ عليه الصلاة والسلام ، ولذلك اختاره المسلمون ٠

وجاء في صحيح البخاري من حديث قتادة قال : سألت أنس بـــن مالك رضي الله عنه عمن جمع القرآن على عهد النبي (ص) قال : أربعـــة كلهم من الانصار أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وابو زيد ٠ قلت لانس من أبو زيد ، قال : أحد عمومتي ٠

وقول أنس انه لم يجمع القرآن غير أربعة يحتمل انه لم يجمـــع القرآن وأخذه تلقينا من رسول الله (ص) غير أولئك الاربعة لانه قـد ثبت بالطرق المتواترة أنه جمع القرآن عثمان بن عفان (رض) ، وتميـــم الداري ، وعبادة بن الصامت ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ٠

وانما كان الرسول (ص) يأمر بكتابة ما ينزل عليه من القرآن الكريم وجمعه لتبليغ الوحي على الوجه الاكمل لان الاعتماد على حفظ الصحابة غير كاف لانهم عرضة للنسيان والموت فلو اعتمد على حفظهم وحــده لخشي ضياع شيء منه بالنسيان أو الموت ، أما الكتابة فباقيـــة لا يتطـــرق اليها شيء من ذلك وليعاضد المكتوب المحفوظ ٠

وقال الذهبي : عثمان احد من جمع القرآن على عهد الرسول قرأ عليه المغيرة ابن أبي شهاب المخزومي ٠ وقال ابو عبدالرحمن السلمي قرأ زيد بن ثابت على رسول الله (ص) في العام الذي توفاه الله مرتين ، وانمـــا سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت لانه كتبها لرسول الله وقرأهـــا

عليه وشهد العرضة الاخيرة ، وكان يقرأ الناس بها حتى مات ولذلك اعتمدها ابو بكر وعمر في جمعه ، وولاه عثمان كتابة المصاحف .

وقد أمر أبو بكر الصديق (رض) زيد بن ثابت كاتب الوحي(رض) فكتب له القرآن لما رأى ان أكثر القراء قد قتلوا في حرب اليمامة سنة ١٢ من الهجرة وكان في ربيع الاول وكذا في بئر معونة من حروب الردة . وذلك ان عمر بن الخطاب (رض) لما رأى ما أصيب به المسلمون باليمامة وان القتل قد اشتد بحفاظ القرآن فقد بلغ من قتل منهم سبعون وقيل سبعمائة فزع الى أبي بكر (رضى) وذكر له ذلك وأنه يخشى أن يشتد القتل بالقراء وحفظة القرآن في بقية الحروب وأن يموت أشياخ القراء كأبي بن كعب وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت ، فيرى أن يأمر بجمع القرآن في قطع الجلد المدبوغ . فأرسل أبو بكر (رض) الى زيد بن ثابت وفاتحه بذلك وقال له انك رجل عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله(ص) فتتبع القرآن فاجمعه ، فتتبع زيد القرآن اجمعه من جريد النخل واللخاف – وهي حجارة بيض رقاق – فكان هذا الجمع عبارة عن جمع الآيات المكتوبة في الاكتاف وجريد النخل والحجارة ونسخها في الاديم ، وقال الحارث المحاسبي في كتابه فهم السنن : كتابة القرآن ليست بمحدثة فانه (ص) كان يأمر بكتابته ولكنه كان مفرقا في الرقاع والاكتاف والعسب ، فانما أمر الصديق بنسخها من مكان الى مكان مجتمعا ، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله فيها القرآن منتشر فجمعها جامع وربطها بخيط لا يضيع منها شيء . وقد احتاط ابو بكر الصديق (رض) في هذا الجمع كل الحيطة ولم يقتصر على المكتوب والمحفوظ في الصدور بل ضم الى ذلك ما يزيد الثقة والطمأنينة في القلوب وهو شهادة الشهود على أن هذا مكتوب بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام ويدل

على ذلك ما أخرجه ابن أبي داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه • وقد قال علي ابن أبي طالب (رض) : اعظم الناس أجرا في المصاحف أبو بكر (رض) ، رحمة الله على أبي بكر هو أول من جمع كتاب الله ، فكانت هذه الصحف عند ابى بكر (رض) حتى توفاه الله ، ثم انتقلت الى عمر الفاروق (رض) فكانت عنده طوال حياته ، ثم انتقلت الى حفصة زوج النبي (ص) وبنت عمر رضي الله عنهما •

ولما كان زمن عثمان بن عفان (رض) وقد اتسعت الفتوحات وكثر الاختلاف في القراءة بحسب اللهجات لتفرق القراء والحفاظ في البلاد ، ولاختلاط العرب بالامم الاعجمية بحيث أصبح يخشى على القرآن ولغته، أحس حذيفة بن اليمان (رض) قائد عثمان (رض) وكان يغازي أهل الشام في أرمينية واذربيجان مع أهل العراق أحس بسوء عاقبة هذا الاختلاف عندما تنازع الفريقان ، وقرأت كل فرقة بما روى لها • قال ابن الاثير : فلما عاد حذيفة قال لسعيد بن العاص لقد رأيت أناسا من أهل حمص يزعمون أن قراءاتهم خير من قراءة غيرهم ، وانهم أخذوا القرآن عن المقداد بن الاسود ، ورأيت أهل دمشق يقولون ان قراءتهم خير من قراءة غيرهم وانهم قرأوا على أبي الدرداء ، ورأيت اهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على عبدالله بن مسعود ، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وانهم قرأوا على أبي موسى الاشعري ويسمون مصحفه ( لباب القلوب ) ، فلما وصلوا الى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم ما يخاف ، فوافقه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثير من التابعين ، وقال له أصحاب ابن مسعود : ما تنكر ؟ ألسنا نقرؤه قراءة ابن مسعود ؟ فغضب حذيفة ومن وافقه ، وقالوا انما انتم أعراب فاسكتوا فانكم على

خطأ ، وقال حذيفة : والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين ولأشيرن عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك ، فاغلظ له ابن مسعود ، فغضب سعيد وقام ، وتفرق الناس ، وغضب حذيفة وسار الى عثمان فاخبره بالذي رأى ، وقال : أنا النذير العريان فادركوا الامة ، فجمع الصحابة واخبرهم الخبر فاعظموه ورأوا جميعاً ما رأى حذيفة فبعث عثمان رضي الله عنه الى أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها فبعثت اليه بالمصحف ، ثم أرسل الى زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام وأمرهم أن ينسخوها في المصاحف ، ثم قال لهم ما اختلفتم فيه انتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش فانه نزل بلسانهم ، وذلك في رسم الحروف لا في تاليف الآيات وتركيب الجمل لأن ذلك كان مفروغا منه على عهد رسول الله (ص) متفقا عليه بين جميع الحفاظ •

وكانت تلك المصاحف التي استنسخت سبعة ، فارسل منها الى مكة ، والشام ، واليمن ، والبصرة ، والكوفة ، والبحرين ، وحبس نسخة بالمدينة وهي مصحفه الذي يسمى بالامام •

فكان عمل عثمان رضي الله عنه هذا سوق المسلمين الى قراءة واحدة ألاو هي لغة قريش التي نزل القرآن بها وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بها •

وقد ارتضى الصحابة رضوان الله عليهم هذا العمل ، وقد قال علي رضي الله عنه لمن سمعهم يتكلمون عن عمل عثمان في هذا الامر : لا تقولوا في عثمان الا خيرا ، فو الله ما فعل الذي فعل بالمصاحف الا عن ملأ منا اصحاب محمد ، فقال ما تقولون في هذه القراءات التي اختلف الناس فيها ، يلقى الرجل الرجل فيقول : قراءتي خير من قراءتك ، وقراءتي افضل من قراءتك وهذا شبيه بالكفر ، فقلنا ما الرأي يا أمير المؤمنين ، قال فاني

أرى ان اجمع الناس على مصحف واحد ، فانكم ان اختلفتم اليوم كان من بعدكم اشد اختلافا ، فقلنا نعم ما رأيت ، فارسل الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص فقال ليكتب أحدكم وليمل الآخر ، فاذا اختلفتم في شيء فارفعوه الي ، فما اختلفا في شيء من كتاب الله الا في حرف من سـورة البقرة قال سعيد (التابوت) بالتاء ، وقال زيد (التابوه) بالهاء ، فرفعا الامر الى عثمان فقـال اكتبوه التابوت بالتاء ، فما كان الاختلاف الا في رسوم الخط والكتابة .

قال القاضي ابو بكر في الانتصار : لم يقصد عثمان قصد ابي بكر في نقش القرآن بين لوحين وانما قصد جمعهم على القراءة الثابتة المعروفة عن النبي صلى الله عليه وسلم والغاء ما ليس كذلك وأخذهم بمصحف لا تقديم فيـه ولا تأخـير ولا تأويـل ولا منسوخ تلاوتـه ، كتب مـع مثبت رسمه ومفروض قراءته وحفظه خشـية دخول الفسـاد والشبهة على من يأتي بعـد .

وكان ابتداء الكتابة من سنة ٣٠ وقد امتدت الى سـنة ٣٥ من الهجرة فعندئذ كمل الاستنساخ وارسلت النسخ .

وعين عثمان رضي الله عنـه زيد بن ثابت ان يقريء بالمدينـة وبعث عامر بن قيس مع المصحف البصري ، وأبا عبدالرحمن السلمي مع المصحف الكوفي ، والمغيرة بن شـهاب مع المصحف الشـامي ليدرسـوا الناس بتلك المصاحف ، وقرأ كل اهل مصر بما في مصحفهم .

وقد أخذ المسلمون ينسخون مصاحفهم عليها ويعتنون بذلك العنـاية كلها ويتنافسون في ذلك حتى ظهرت طبقـة من بين المسـلمين نالت المركز والدرجة القصوى في حسن الخط وبراعة الاستنساخ .

فالجمع[1] الاول كان جمع الآيات حين نزولها في الكتف وامثالـه

---

(١) تاريخ القرآن .

مما كانت العرب تكتب عليه وعرضها على النبي صلى الله عليه وسلم •

والجمع الثاني : في عهد الخليفة ابي بكر رضي الله عنه كان جمع القرآن بين لوحين ونسخها في قطع الاديم •

والجمع الثالث : في عهد عثمان رضي الله عنه كان جمع المسلمين على قراءة واحدة •

## خط المصاحف

نشأ الاسلام في بيئة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ، وكان الذين يحسنونهما يعدون على الاصابع • وكان الخط المتداول في الحجاز هو الذي يسمى بالحميري القديم او الانباري ومن بعد سمي بالحجازي وهو اصل النسخ ، فانتشر ذلك الخط بين المسلمين واصبح المصطلح الرسمي بينهم ، وقد كتب الصحابة الكرام رضوان الله عليهم القرآن الحكيم وكانوا اربعة واربعين - على أصح الاقوال - من كتاب الوحي بتلك الكتابة وبذلك الرسم وكان ذلك بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فأقرهم عليه ، وهو حجة شرعية كقوله وفعله صلى الله عليه وسلم فاصبح اتباع ذلك الرسم بالصفة المعروفة مما لا يجوز تغييره ولا تبديله • قال صاحب الابريز عن شيخه عبدالعزيز الدباغ : رسم القرآن سر من اسرار المشاهدة وكمال الرفعة ، وهو صادر من النبي صلى الله عليه وسلم وليس للصحابة ولا لغيرهم في رسم القرآن ولا شعرة واحدة ، وانما هو بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي امرهم ان يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الالف ونقصانها ونحو ذلك لأسرار لا تهتدي اليها العقول

الا بالفتح الرباني وهو سر من الاسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية ، فكما ان نظم القرآن معجز فرسمه معجز ايضاً . وكان عليه الصلاة والسلام يعلم كتابه كيفية كتابة الحروف والكلمات فمن ذلك قوله لاحدهم : « اذا كتب احدكم بسم الله الرحمن الرحيم فليمد الرحمن » وقوله لآخر : « اذا كتبت بسم الله الرحمن الرحيم فبين السين فيه » وقوله لمعاوية ابن ابي سفيان رضي الله عنه : « الق الدواة وحرف القلم وانصب الباء وفرق السين ولا تعور الميم وحسن الله ومد الرحمن وجود الرحيم » .

وحينما أراد ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه كتابة نسخ من القرآن الكريم استحضر المصحف الذي كان عند حفصة بنت الفاروق وزوج الرسول واستحضر زيد بن ثابت وضم اليه نفراً من قريش فكتبوه على الصفة التي كتب بها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ووافق الصحابة كلهم على ذلك ولم يختلفوا الا في كتابة التاء من آخر ( التابوت ) أتكتب مفتوحة كتاء الطاغوت أم مربوطة كهاء (التوراة) ، ولما رفع الامر الى عثمان رضي الله عنه جمع الصحابة وشاورهم في الامر فاتفقت كلمتهم على ان يكتبوها تاء مفتوحة تبعا للغة قريش ولم يقع هذا الاختلاف في هذا الحرف الا بسبب طول المدة ، وان اجماع الصحابة رضوان الله عليهم على كتابة المصاحف بهذا الرسم ـ وقد كانوا اثنى عشر الفاً ـ حجة في الدين لا يجوز مخالفتها شرعاً ، وقد ورد في الحديث الصحيح « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة » وقوله عليه الصلاة والسلام « اقتدوا بالذين من بعدي ابي بكر وعمر » وقوله « اصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

قال عبدالرحمن بن هانىء البربري مولى عثمان : كنت عند

عثمان رضي الله عنه وهم يعرضون عليه المصاحف فارسلني بكتف شاة الى أبي بن كعب فيها « لم يتسن » وفيها : « لا تبديل للخلق » وفيها « فامهل الكافرين » قال : فدعا الدواة فمحا احدى اللامين فكتب « لخلق الله » ومحا « فأمهل » وكتب « فمهل » وكتب « لم يتسنه » بالهاء •

سئل الامام مالك رضي الله عنه : أرأيت من استكتب مصحفاً أترى ان يكتب على ما استحدثه الناس من الهجاء اليوم ، فقال : لا أرى ذلك ، ولكن يكتب على الكتبة الاولى • قال السخاوي : والذي ذهب اليه مالك هو الحق اذ فيه بقاء الحالة الاولى الى ان يعلمها الطبقة الاخرى بعد الاخرى ولاشك ان هذا هو الاحرى ، اذ في خلاف ذلك تجهيل الناس باولية ما في الطبقة الاولى • وقال ابو عمرو الداني ولا مخالف لما لك من علماء الامة في ذلك • وسئل مالك ايضاً عن الحروف في القرآن مثل الواو والالف أترى ان يغير من المصحف اذا وجد فيه كذلك ؟ قال : لا - يعني الواو والالف المزيدتين في الرسم المعدومتين في اللفظ •

وقال الامام احمد رضي الله عنه : تحرم مخالفة خط مصحف عثمان في واو او الف او ياء أو غير ذلك •

وقال البيهقي في شعب الايمان : من يكتب مصحفاً ينبغي ان يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف ولا يخالفه فيه ولا يغير مما كتبوا شيئاً فانهم كانوا اكثر علماً واصدق قلبا ولسانا واعظم أمانة منا فلا ينبغي ان نظن بانفسنا استدراكا عليهم •

وقال ابن الحاج في المدخل :ويتعين عليه - كاتب المصحف - ان يترك ما احدثه بعض الناس في هذا الزمان ، وهو ان ينسخ المصحف على غير مرسوم المصحف الذي اجتمعت عليه الامة على ما وجد به بخط عثمان بن عفان رضي الله عنه •

وقال عبدالرحمن بن القاضي المغربي بعد ذكره النقول المذكورة :
ولا يجوز ذلك ، ولا يلتفت الى اعتلال من خالف بقوله : ان العامة لا تعرف مرسوم المصحف العثماني الى آخر ما عللوا به ، فهذا ليس بشيء لأن من لا يعرف المرسوم من الامة يجب عليه ان لا يقرأ في المصحف حتى يتعلم القراءة على وجهها ، ويتعلم مرسوم المصحف ، فان فعل غير ذلك فقد خالف ما اجتمعت عليه الامة وحكمه معلوم في الشرع الشريف ومن علل بشيء فهو مردود عليه لمخالفته الاجماع المتقدم ، وقد تسربت هذه المفسدة الى خلق كثير من الناس في هذا الزمان فليتحفظ من ذلك في حق نفسه وحق غيره .

وقال القاضي عياض في الشفاء : اجمع المسلمون على أن من نقص حرفاً قاصداً لذلك ، او بدله بحرف آخر مكانه او زاد حرفاً مما لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع عليه الاجماع واجمع على انه ليس من القرآن عامداً لكل هذا انه كافر .

وجاء في المحيط البرهاني : انه ينبغي ان لا يكتب المصحف بغير الرسم العثماني .

وقد اجمع العلماء على حرمة مخالفة الرسم العثماني لانها يترتب عليها تغيير في النطق وصلا أو وقفاً لذلك وجب كتابة المصحف على الرسم المصطلح السلفي دون غيره لان ذلك وضع لاداء جميع القراءات المروية عنه (ص) وبتغييره يفوت ذلك القصد ، فالصحابة الكرام لم يجمعوا على هذا الرسم جزافاً وانما كان على اساس يدركه فقهاء اللغة وعلماء الدين وتترتب عليه الاحكام ولاسيما في الامالة والوقف ، فالوقف مثلا على نعمة ورحمة وسنة لا يعلم أهو بالهاء او التاء الا بالرسم ، وكذلك المحذوف منه الياء او الواو بغير عامل لا يعلم الا بالرسم مثل قوله تعالى « أجيب دعوة الداع اذا دعان » وقوله تعالى « وسوف يأت الله » وقوله تعالى « ويدع الانسان بالشر دعاءه

بالخير » وكذلك الموصول والمقطوع مثل : كلما ، وانما ، وعما ، وأمن . فالموصول نحو قوله تعالى « كلما أضاء لهم مشوا فيه » والمقطوع نحو قولـــه تعالى « كل ما ردوا الى الفتنة اركسوا فيها » ومثل ألا وألم بنون او بغير نون ، وكذلك اخذ القراءات المختلفة من اللفظ المرسوم برسم واحد كقوله تعالى « وما يخدعون الا انفسهم » وقوله تعالى « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا » فلو كتبت الاولى وما يخادعون لفاتت قراءة يَخْدَعون ، ولو كتبت الثانية بالف على قراءة الجمع لفاتت قراءة الافراد .

وان القواعد الاملائية التي حدثت منذ عهد التأليف والتدوين لم يتفق عليها واضعوها ، بل اختلفوا في رسم كثير من الكلمـات كما هو مدون في مواضعه ، وهي بعد ذلك عرضة للتغيير والتبديل ، وقد صارت اليوم موضع شكوى وتفكير نظراً لما فيها من كتابة احرف لا وجود لها في النطق ، وترك احرف منطوق بها ، فلا ينبغي والحالة هذه ان يخضع القرآن في رســـمه لهذه القواعد المختلف عليها والتي هي عرضة للتغيير والتبديل .

وقد أجمع الائمة على انه لا يجوز كتابة القرآن بغير اللغة العربية لان كتابته بغيرها تخرجه عن الرسم الوارد الذي قام الاجمـــاع على انه يجب التزامه بل قد تؤدي كتابته بغير العربيـــة الى التغيير في اللفظ ، لأن بعض الحروف العربية لا نظير لها في بعض اللغات الاخرى . وقال ابو بكر محمد بن الفضل البخاري وهو من علماء الحنفية : ان تعمد كتابة القرآن بغـــير العربية يكون مجنوناً أو زنديقاً ، فالمجنون يداوى والزنديق يقتل . وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني بتحريم كتابـة القرآن بالعجمية والقراءة بها ، ووَجْهُ ذلك انّ القرآنَ العظيم بالعجمي تصّرف في اللفظ المعجز الذي حصل التحدي به بما لم يرد بل يوهم عدمَ الاعجاز بل الركاكة الى آخر ما ذكره . وقال شيخ الاسلام المرغيناني في كتابه التجنيس : ويمنع من كتابة القرآن

بالفارسية لانه يؤدي الى الاخلال بحفظ القرآن لاننا أمرنا بحفظ النظم والمعنى وانه دلالة على النبوة ولانه ربما يؤدي الى التهاون بأمر القرآن •
وقالت لجنة الفتوى بالازهر : اجمع علماء الاسلام سلفاً وخلفاً على ان كل تصرف في القرآن الكريم يؤدي الى تحريف في لفظه او تغيير في معناه فممنوع منعاً باتاً ومحرم تحريماً قاطعاً وقد التزم الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم الى يومنا هذا كتابة القرآن الكريم بالحروف العربية ، ومن هذا يتبين ان كتابة القرآن العظيم بالحروف اللاتينية المعروفة لا يجوز •

# وضع الاعراب والاعجام

لما انتشر الاسلام واختلط العرب بالاعاجم ، ظهر اللحن على لسان بعض العرب فانتبه الغيارى من المسلمين الى النهوض والعمل لصيانة القرآن المجيد من ان يتسرب اليه من ذلك شيء فخاطبوا في ذلك زياد ابن ابيه امير البصرة وكان من فصحاء العرب وبلغائهم ، فبعث زياد الى ابي الاسود الدؤلي وكلمه في هذا الامر وقال له : ان هذه الحمراء - يريد غير العرب - قد كثرت وافسدت من ألسنة العرب فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ويعربون به كتاب الله ، فامتنع ابو الاسود ان يضع ذلك بادىء ذي بدء ، ولكنه مر في أحد الايام في احدى الطرق فسمع قارئاً يقرأ : « ان الله بريء من المشركين ورسوله » بكسر اللام من رسوله ، فاضطر الى اجابة زياد فيما سأله وأرسل اليه كاتباً من عبدالقيس ، فقال ابو الاسود للكاتب : خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد فاذا رأيتني فتحت شفتي بالحرف فانقط واحدة فوقه واذا كسرتهما فانقط واحدة اسفله واذا ضممتهما فاجعل النقطة بين الحرف فان تبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين . وعلى هذه الطريقة أعرب القرآن العظيم كله .

واتبعوا طريقة أبي الاسود ونوعوا فيها ، فكانوا اذا رأوا الحرف الذي بعد النون حرف حلق وضعوا نقطتين احداهما فوق الاخرى علامة على أن النون مظهرة والا وضعوهما متجاورتين علامة على الادغام أو الاخفاء . وقد زاد أهل المدينة للحرف المشدد علامة على شكل القوس طرفاه من أعلى (ب) يوضع فوق الحرف المفتوح وتحت المكسور وعلى شمال المضموم ، ويضعون نقطة الفتحة في داخل القوس والكسرة تحت حدبته والضمة على شماله ، ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الضمة والكسرة وابقوه

على أصله مع الفتحة ، ثم حدث تغيير في صورة الشكل على يد الخليل بن احمد •

ولما كان القرآن غير معجم كثر التصحيف في القراءة وأخذ البعض يتلفظ حرفاً مكان حرف • فانتبه لهذا الامر الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق ، فبعث الى نصر بن عاصم الليثي ، ويحيى بن يعمر العدواني وطلب اليهما وضع نقط على الاحرف افراداً وازواجاً لتمييزها ، وكذا وضع الحركات والسكنات بدل النقط التي وضعت من قبل أبي الاسود الدؤلي لكيلا تلتبس مع نقط الحروف • وان الحجاج قد زاد فعهد الى العلماء تحزيب القرآن وتعشيره •

والف أحد علماء واسط اثر ذلك كتاباً في القراءات جمع فيه ما روي من اختلاف الناس فيما وافق الخط •

# التجـــويد

التجويد مصدر من جوده تجويداً والاسم منه الجودة ضد الرداءة ، فهو عبارة عن الاتيان بالقراءة مجودة الالفاظ بريئة من الرداءة في النطق واعطاء الحروف حقها ومستحقها •

فالتجويد هو حلية التلاوة ، وزينة القراءة ، وهو اعطاء الحروف حقها وترتيبها ومراتبها ، ورد الحرف الى مخرجه واصله ، والحاقه بنظيره وتصحيح لفظه ، وتلطيف النطق به على حال صيغته وكمال هيئته ، من غير اسراف ولا تعسف ، والى ذلك اشار النبي (ص) بقوله : ( من احب ان يقرأ القرآن غضاً كما انزل فليقرأ قراءة ابن ام معبد ) يعني عبدالله بن مسعود ، وكان رضي الله عنه قد اعطي حظاً عظيما في تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله ، حتى انه كان يبكي رسول الله (ص) عند تلاوته ••

ان الاسماع لتلتذ بقراءة القرآن الحكيم مجوداً مصححاً في تلاوته ، وتخشع القلوب عند قراءته ، حتى يكاد يسلب العقول ويأخذ الالباب[1] •

---

(١) ملخص عن النشر في القراءات العشر •

# محاسن التلاوة وعيوبها

يجب على طالب التجويد ان يكرر الالفـاظ التي تلقاها من فم استاذه ويريض بها لسانه حتى يستقيم في اخراجهـا على الصورة اللازمة • قـال ابو عمرو الداني : ليس بين التجويد وتركه الا رياضـة لمن تدبره بفكه ، فليس التجويد بتمضيغ اللسان ، ولا بتقعير الفم ، ولا بتعريج الفك ، ولا بترعيد الصوت ، ولا بتمطيط الصوت ، ولا بتقطيـع المد ، ولا بتطنين الغنات ، ولا بحصرمة الراءات ، ولا قراءة تنفر عنها الطباع وتمجها القلوب والاسماع ، بل القراءة السهلة العذبة الحلوة اللطيفة التي لا مضغ فيهـا ولا لوك ، ولا تعسف ولا تكلف ، ولا تصنع ولا تنطع ، ولا تخرج عن طباع العرب وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراءات والاداء •

وقد سمع حمزة قارئاً يبالغ في الغنـات فقال : أما علمت أن ما فوق البياض برص ، وان ما فوق الجعود قطط ، وان ما فوق القراءة ليس بقراءة•

فالقراءة بهذه العيوب التي ذكرت ممنوعة ممجوجة ، يأنف منها الطبع ويمجها السمع لما فيها من التكلف والتعسف ولانها مخالفـة للنطق العربي الفصيح • فالواجب مراعاة اخراج الحروف من مخارجها فلا ينطق بالعين همزة ولا بالحاء هاء ، ولا بالضاد طاء او دالا ، كما يجب توفية الحروف حقها من الصفات كالترقيق ، والتفخيم ، والادغام ، والاظهار ، والاخفاء ، والقلقلة ، والشدة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات ، والمد ، والقصر ، والاذلاق ، والهمس ، والرخـوة ، والاسـتعلاء والجهر ، والتوسـط ، والانحراف ، والتكرير ، والصفير ، والتفشي ، والاطباق ، والاسـتطالة ، والغنة ، واللين • وان لم يفعل يكن من الداخلين في قوله عليه الصلاة والسلام ( رب تال للقرآن والقرآن يلعنه ) •

وقال ابن الجزري في كتابه النشر :

لاشك في ان المسلمين كما هم متعبدون بفهم معاني القرآن واقامـــه حدوده ، متعبدون كذلك بتصحيح الفاظه واقامة حدوده على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالحضرة النبوية والافصحية العربية التي لا يجوز مخالفتها ولا العدول الى غيرها والناس في ذلك بين محسن ومأجور ، ومسيء وآثم ، او معذور ، فمن قدر على تصحيح كـلام الله تعـالى باللفظ الصحيح العربي الفصيح وعـدل الى اللفظ الفارسي العجمي والنبطي القبيح استغناء بنفسه واستبداداً برأيه واتكالا على ما ألفه من حفظه ، واستكباراً عن الرجوع الى مالم يوقفه على تصحيح لفظه ، فانه مقصر بلاشك وآثم بلا ريب ، وأما من كان لا يطاوعه لسانه او لايجد من يهتدي به الى الصواب ، فان الله تعـالى لا يكلف نفساً الا وسعها ، وقد اجمع العلماء على ان النقص في كيفية النطق بالقراءة كالنقص في جوهر القرآن ومادته ، فمن نقص مدة أو غنة ، أو فخم مرققاً أو رقق مفخما ، أو أظهر مخفياً أو مدغماً ، كان كمن نقص بعض حروف القرآن وأسقط شيئاً من كلماتـــه ، والزيادة كالنقص فمن زاد في الغنات والمدود أو بالغ في بعض صفات الحروف حتى خرج بها عن الحـــد المألوف ، أو مطط في الحركات حتى تولد عنها الفات وواوات وياءات ، كان كمن زاد في القرآن ما ليس منه من الحروف والكلمـــات ، وكلا النقص والزيادة في القرآن حرام وبدعة مردودة • اهـ •

فتجويد القرآن فرض على كل مسلم ومسلمة عند التلاوة ، صيانة لـه عن أن يجد اللحن والتغيير اليه سبيلا • فتجـــويد اللفظ وتقـويم الحروف وحسن الاداء واجب على كل من قرأ شيئاً من القرآن كيف ما كان لأنـــه لا رخصة في تغيير اللفظ بالقرآن وتعويجـه واتخاذ اللحن سبيلا اليه ، فكما يجب تدبر القرآن وفهم معناه يجب تصحيح الفاظه واقامة حروفه على الصفة

المتلقاة عن أئمة القراءة المأخوذة عن النبي (ص) عن جبريل عليه السلام •

وان الاداء في القراءة متواتر ، وقال العلماء ان اصل المد والامالة متواتر ، ولكن التقدير غير متواتر للاختلاف في كيفيته وانما ثبت آحاداً فقط ، وأما أنواع تحقيق الهمزة فكلها متواتر ، لأنه اذا ثبت تواتر اللفظ ثبت تواتر ادائه •

---

## مخارج الحروف

المخرج في الأصل : موضع الخروج ، والمراد هنا موضع ظهور الحرف وتمييزه عن غيره ، ويجب على تالي القرآن ان ينطق بالفاظه وحروفه بحسب ما ورد عن جبريل عليه السلام عن رسول الله (ص) ، ويحتاج ذلك لمعرفة مخارج الحروف وصفاتها كي تتميز الحروف بعضها عن بعض ، ولكي يعرف كمية كل منها وكيفيته •

فمخارج الحروف سبعة عشر على القول المختار وهي :

١ ـ الجوف : وهو مخرج للالف ، والواو الساكنة المضموم ما قبلها ، والياء الساكنة المكسور ما قبلها •

٢ ـ أقصى الحلق : وهو مخرج للهمزة ، والهاء •

٣ ـ وسط الحلق : وهو مخرج العين ، والحاء •

٤ ـ أدنى الحلق الى الفم : وهو مخرج الغين ، والخاء •

٥ ـ أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى : مخرج القاف •

٦ ـ أقصى اللسان ومن أسفل مخرج القاف من اللسان قليلا وما يليه من الحنك الاعلى : مخرج الكاف •

٧ – من وسط اللســان بينه وبين وســط الحنك الاعلى : مخرج الجيم ، والشين •

٨ – من أول حافة اللســان وما يليــه من الاضراس من الجانب الايسر : مخرج الضاد •

٩ – من حافة اللسان من أدناها الى منتهى طرفه وما بينها وبين ما يليها من الحنك الاعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعيــة والثنية : مخرج الـــلام •

١٠– من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا : مخرج النون •

١١– من طرف اللسان بينه وبين ما فوق الثنايا غير انه ادخل في ظهر اللسان قليلا لانحرافه الى اللام : مخرج الراء •

١٢– من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا مصعداً الى جهة الحنك : مخرج الطاء ، والدال ، والتاء •

١٣– مما بين طرف اللســان وفويق الثنايــا السفلى : مخــرج الزاي ، والسين ، والصاد •

١٤– مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا : مخرج الظاء ، والذال ، والثاء •

١٥– من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا : مخرج الفاء •

١٦– ما بين الشفتين : مخرج الباء ، والميم •

١٧– الخيشوم : مخرج النون الخفيفة •

وإذا أراد القاريء أن يعرف مخرج الحرف فليسكنه أو يشدده وهو الاظهر ، أو يدخل عليه همزة الوصل ، وليصغ اليه فحيث انقطع الصوت في الفم فذاك مخرجه •

# صفات الحروف

ان الصفات للحروف كالناقد للأمور بعلم ودراية تميز الحروف المشتركة بعضها عن بعض وتبين كيفية النطق بها • وقد ذكر العلماء ان للحروف تسعة عشر صفة ، عشرة متضادة ، وتسعة ليست بمتضادة ، وذكر آخرون ان صفات الحروف اثنتان وعشرون ، وقد فصل ذلك علماء التجويد•

فالصفات المتضادة هي :

١ ـ الجهر : وضده ـ الهمس

٢ ـ الرخوة : وضدها ـ الشدة ، والتوسط

٣ ـ الاستفال : وضده ـ الاستعلاء

٤ ـ الانفتاح : وضده ـ الاطباق

٥ ـ الاصمات : وضده ـ الاذلاق

والصفات التي لا ضد لها هي :

١ ـ الصفير

٢ ـ القلقلة

٣ ـ اللين

٤ ـ المد

٥ ـ الانحراف

٦ ـ التكرير

٧ ـ التفشي

٨ ـ الاستطالة

٩ ـ الغنة

ولنذكر هنا جدولا للحروف الهجائية وصفاتها :

أ ـ الجهر[1] ، والشدة[2] ، والاستفال[3] ، والانفتاح[4] ، والاصمات[5] ، والمد[6] .

ب ـ الجهر ، والشدة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاذلاق[7] ، والقلقلة[8].

ت ـ الهمس[9] ، والشدة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات .

ث ـ الهمس ، والرخوة[10] والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات .

ج ـ الجهر ، والشدة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات ، والقلقلة .

ح ـ الهمس ، والرخوة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات .

---

(١) الجهر : احتباس مجرى النفس مع تحرك حروفه .
(٢) الاستفال : انخفاض اللسان عند التلفظ بحروفه الى الحنك الاعلى .
(٣) الاستفال : انخفاض اللسان عند التلفظ بحروفه الى الحنك الاعلى .
(٤) الانفتاح : هو انفتاح قليل من اللسان والحنك الاعلى بحيث يخرج الريح من بينهما عند النطق بحروفه .
(٥) الاصمات : منع انفراد حروفه اصولا في الكلمات الرباعية والخماسية.
(٦) المد : اطالة الصوت بحرف مدي من حروف العلة .
(٧) الترقيق : تنحيف الحرف بجعله في المخرج نحيفاً وفي الصفة ضعيفاً .
(٨) الاذلاق : الاعتماد على طرف اللسان والشفة عند النطق .
(٩) القلقلة : اضطراب الحرف عند النطق به ساكناً مماثلا الى الفتح حتى يسمع له نبرة قوية .
(١٠) الهمس : جري النفس مع تحرك حروفه .

خ ـ الهمس،والرخوة[١] ، والاستعلاء[٢]،والانفتاح،والاصمات والتفخيم[٣].

د ـ الجهر ، والشدة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات ،والقلقلة .

ذ ـ الجهر ، والرخوة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات .

ر ـ الجهر ، والتوسط[٤] ، والاستفال ، والانفتاح ، والاذلاق ، والانحراف[٥] ، والتكرير[٦] .

ز ـ الجهر ، والرخوة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات ، والصفير[٧].

س ـ الهمس ، والرخوة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات ، والصفير .

ش ـ الهمس ، والرخوة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات ، والتفشي[٨].

ص ـ الهمس ، والرخوة ، والاستفال ، والاطباق[٩] ، والاصمات ، والصفير ، والتخفيم .

---

(١) الرخوة : جرى الصوت مع حروفه حال اسكانها .

(٢) الاستعلاء : ارتفاع اللسان عند التلفظ بحروفه الى الحنك الاعلى .

(٣) التفخيم : تسمين الحرف بجعله في المخرج سميناً وفي الصفة قوياً .

(٤) التوسط : هو الذي لم يجر الصوت مع حروفه جريانه مع الرخوة ولم ينحبس معه انحباسه مع الشدة .

(٥) الانحراف : ميل الحرف بعد خروجه حتى يتصل بمخرج غيره .

(٦) التكرير : ارتفاع رأس اللسان عند النطق بالحرف .

(٧) الصفير : صوت زائد يخرج من بين الشفتين .

(٨) التفشي : انتشار الريح من الفم عند النطق بالحرف حتى يتصل بمخرج غيره الذي هو الظاء .

(٩) الاطباق : انطباق اللسان الى الحنك الاعلى عند النطق .

ض ـ الجهر ، والرخوة ، والاستعلاء ، والاطباق ، والاصمات ، والاستطالة[1] والتفخيم .

ط ـ الجهر ، والشدة ، والاستعلاء ، والاطباق ، والاصمات ، والقلقلة ، والتفخيم .

ظ ـ الجهر ، والرخوة ، والاستعلاء ، والاطباق ، والاصمات والتفخيم .

ع ـ الجهر ، والتوسط ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات .

غ ـ الجهر ، والرخوة ، والاستعلاء ، والانفتاح ، والاصمات والتفخيم .

ف ـ الهمس ، والرخوة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاذلاق .

ق ـ الجهر ، والشدة ، والاستعلاء ، والانفتاح ، والاصمات ، والقلقلة ، والتفخيم .

ك ـ الهمس ، والشدة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات .

ل ـ الجهر ، والتوسط ، والاستفال ، والانفتاح ، والاذلاق والانحراف .

م ـ الجهر ، والتوسط ، والاستفال ، والانفتاح ، والاذلاق والغنة[2] .

ن ـ الجهر ، والتوسط ، والاستفال ، والانفتاح ، والاذلاق والغنة .

و ـ الجهر ، والرخوة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات واللين[3] والمد .

هـ ـ الهمس ، والرخوة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات .

لا ـ الجهر ، والرخوة ، والاستفال ، والانفتاح ، والاصمات والاشتراك بين الترقيق والتفخيم .

ي ـ الجهر،والرخوة،والاستفال ،والانفتاح ، والاصمات ، واللين ، والمد.

---

(١) الاستطالة : امتداد الحرف من مخرجه من اول حافة اللسان الى آخرها حتى يتصل بمخرج اللام .

(٢) الغنة : صوت يخرج من الخيشوم وهو اقصى الانف .

(٣) اللين : هو اخراج الحرف من غير كلفة وبتوأدة .

# القاب الحروف

للحروف القاب أخر عدا التي ذكرناها وهي :

الحلقية ـ وتكون في : العين ، والهاء ، والحاء ، والخاء ، والغين ، والهمزة .

اللهوية ـ وتكون في : القاف ، والكاف .

الشجرية ـ وتكون في : الجيم ، والشين ، والضاد ، و «الشجر مفرج الفم» .

والاسلية ـ وتكون في : الصاد ، والسين ، والزاي . « لان مبدأها من أسلة اللسان وهي مستدق طرفه » .

والنطعية ـ وتكون في : الطاء ، والذال ، والتاء ، « لان مبدأها من نطـع الفك الاعلى » .

واللثوية ـ وتكون في : الظاء ، والدال ، والثاء . « لان مبدأها في اللثة » .

والذلقية ـ وتكون في : الراء ، واللام ، والنون .

والشفوية ـ وتكون في : الفاء ، والباء ، والميم .

والهوائية ـ وتكون في : الواو ، والالف ، والياء .

# القراءات

القراءات : هي نوع من التلاوة توافق لغة العرب ولو من وجه ، وقد تواتر سندها ووافقت أحد المصاحف العثمانية ، فما لم يوافق لغـــة العرب ولم يتواتر سنده ولم يوافق احد المصاحف العثمانية فليس بقرآن •

وقد نزل القرآن بسبعة احرف تنتظم جميع اللغات العربية وهي متلقاة عن النبي (ص) وموقوفة على السماع • روى البخـاري ومسـلم والنسائي والترمذي وابو داود ومالك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قـال : سمعت هشام بن حكيم ابن حزام يقرأ سورة الفرقان على حروف كثيرة لم يقرأنيها رسول الله (ص) فكدت ان أساوره في الصلاة فتربصت به حتى سلم فلببته بردائي • فقلت لـــه من اقرأك هذه الســـورة ؟ قال : اقرأنيهـــا رســـول الله (ص) فقلت : كـذبت ان رســـول الله (ص) اقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به اقوده الى رسول الله فقلت : يارسول الله اني سـمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف كثيرة لم تقرأنيها فقال : أرسله اقرأ ياهشام فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ ، فقـــال رسول الله (ص) : هكذا انزلت ، ثم قال اقرأ ياعمر ، فقرأت القراءة التي اقرأني فقال رسول الله : هكذا انزلت ، ان هذا القرآن انزل على سبعة احرف فاقرأوا ما تيسر منه • وروى البخاري في صحيحه ان رسول الله (ص) قال : اقرأني جبريل على حرف فراجعته فلم أزل استزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة احرف •

وانما انزل القرآن على هذه الاحرف تيسيراً على الامة لاختلاف لهجاتها كأن يكون الحرف المرموز له بألف (أ) تيسيراً على اهل الشمال من قضاعــه وجاراتها ، والحرف (ب) مثلا تيسيراً على هوازن ، و (ج) تيسيراً على تميم وهلم جرا في بقية الحروف ، الا ان هذا لغة قضاعة أو ذاك لغة هوازن أو

الآخر لغة التميميين • واوضح مثال لذلك هذه العربية الى تتعلمها ونتكلم بها اليوم فانما هي حرف او نخبة من لغات الجزيرة العربية كلها لا يختص بقريش ولا كنانة ولا تميم ولا هذيل ، فالحرف في القراءات قراءة او لغة على هذا المثال •

هذه الاحرف يعرفها النبي (ص) فيقريء كل قاريء ما يناسبه منها وما يقدر عليه ، فمنهم من يقرءه على حرف واحد ، ومنهم من يقرءه على حرفين ، ومنهم من يستطيع ان يتلقى جميع الحروف كزيد بن ثابت رضي الله عنه[1] •

ولاشك في ان من نظر الى ذلك كله وعرف ان النبي كان يخاطب جميع قبائل العرب وفيهم الشيخ الفاني والغلام والخادم وضعيف الادراك وسيء الحفظ ومتلعثم اللسان وانه كان يعلمهم جميعاً القرآن ولم يرتب في انه لا بأس من تعليم كل قوم بلغتهم ولا داعي لتكليفهم بمشقة الانتقال عنها بل يرى ذلك من الحكمة تسهيلا عليهم واستمالة لنفوسهم الابية وتوسيعاً لطريق الدين في وجه من يريد الدخول فيه • غاية الامر انه يلزم ان لا يكل ذلك لاختيارهم لئلا يختلف التعبير عنه باختلاف الافهام أو تلاعب الاوهام وليس يليق بفعل الله وهو احكم الحاكمين ان يكلف العرب ان يتعلموا لغة قريش مثلا ثم يجيئوا للنبي بعد ذلك ليأخذوا عنه القرآن[2] •

واللغات التي نزل بها القرآن غير لغة قريش هي : لغة بني سعد ، وثقيف ، وخزاعة ، وهذيل ، وكنانة ، وأسد ، وضبة ، ثم قيس واكنافها وهم يسكنون وسط الجزيرة •

---

(١) الهداية الاسلامية •      (٢) الجواب المنيف للدجوي •

# اختلاف القراءات

قال ابن الجزري : تتبعت صحيح القراءة وشاذها وضعيفها ومنكرهـا فإذا هي يرجع اختلافها الى سبعة اوجه لا يخرج عنها وذلك :

١ – اما في الحركات بلا تغير بالمعنى والصورة نحو : البخل باربعة ، ويحسب بوجهين .

٢ – او بتغيير في المعنى فقط نحو : فتلقى آدم من ربه كلمات .

٣ – وأما في الحروف بتغيير المعنى لا الصورة نحو : تبلو وتتلو .

٤ – او بالعكس نحو : بصطة ، وبسطة ، والصراط والسراط .

٥ – او بتغييرهما نحو : أشد منكم ومنهم ، ويأتل ويتأل .

٦ – وأما في التقديم والتأخير نحو : فيقتلون ويقتلون .

٧ – أو في الزيادة والنقصان نحو : اوصى ووصى .

قال : وأما نحو اختلاف الاظهار والادغام والروم والاشمام فهذا ليس في الاختلاف الذي يتنوع في اللفظ والمعنى لان هذه الصفات المنوعة في اداءه لا تخرج عن أن يكون لفظه واحداً .

وقال ابن قتيبة بصدد هذه الاحرف السبعة : (١) ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته نحو (ولا يضار كاتب) بفتح الراء وضمها . (٢) ما يتغير فيه الفعل مثل : بعد وباعد بلفظ الماضي والطلب . (٣) ما يتغير بالنقط مثل : ننشرها ، وننشزها . (٤) ما يتغير بابدال حرف قريب المخرج مثل : طلح وطلع . (٥) ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل : وجاءت سكرة الموت بالحق ، وسكرة الحق بالموت (٦) ما يتغير بزيادة

ونقصان مثل : والذكـــر والانثى ، وخلق الذكـر والانثى • (٧) ما يتغير بابدال كلمة باخرى مثل : كالعهن المنقوش ، وكالعهن المنفوش •

قال الاستاذ العلامة محمد الخضر حسين في كتابه ( نقض كتـاب في الشعر الجاهلي ) واختلاف القراءات على نوعين :

(اولهما) اختلاف القراءتين في اللفظ مع اتفاقهما في المعنى ومن هـذا النوع ما يرجع الى اختلاف اللغات ، كقراءتي « اهدنا الصراط » بالصـــاد ، او « اهدنا السراط » بالسين ، الى ما يشاكل هذا من نحو الاظهار والادغام والمد والقصر او تحقيق الهمز وتخفيفه ، والحكمة في هذا تيسير تلاوته على ذوي لغات مختلفة « فلو اراد كل فريق من هؤلاء ان يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلا وناشئاً وكهلا ، أشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه ، ثم لم يمكنه ذلك الا بعد رياضة للنفس طويلة وتذليـــل للسان وقطع للعادة ، فاراد الله عزوجل بلطفه ورحمته ان يجعل لهم متسعاً في اللغات ومتصرفاً في الحركات »[1] •

ومن هذا النوع مالا تختلف فيه اللغات وانما هما وجهان او هي وجوه تجرى في الفصيح من الكلام نحو ( وما عملت ايديهم ) و ( ما عملته ايديهم) وهذا النوع وارد على سنة العرب من صرف عنايتها الى المعاني ونظرها الى الالفاظ نظر الوسائل فلا ترى بأســاً في ايراد اللفظ على وجهين او وجوه ما دام المعنى الذي يقصد بالخطاب باقياً في نظمه ومأخوذاً من جميع اطرافه، وفي هذا توسعة على القاريء وعدم قصره على حـــرف ولاسيما حيث كـان محجوزاً عليه ان يغير الكلمة من القرآن ويحيد بها عن وجهها المسموع •

(ثانيهما) اختلاف في اللفظ والمعنى مع صحة المعنيين كليهما وحكـم هذا ان تكون الآية بمنزلة آيتين وردتا لافـــادة المعنيين جميعاً ، كاختـلاف

---

(١) مشكل القرآن لابن قتيبة •

قراءتي « مالك يوم الدين » بالالف و « ملك يوم الدين » بغير الف ، فقد افادت احدى القراءتين ان الله مالك يوم الدين يتصرف فيه كيف يشاء ، وافادت الاخرى انه ملكه الذي يحكم فيه بما يريد ٠

اما اختلاف اللفظ مع تضاد المعنيين فهذا لا اثر له في القرآن ٠ قال ابو محمد بن قتيبة في مشكل القرآن : الاختلاف نوعان ، اختلاف تغاير واختلاف تضاد ، فاختلاف التضاد لا يجوز ، ولست واجده بحمد الله في شيء من كتاب الله ٠ واختلاف التغاير جائز ٠ ثم ضرب لهذا النوع من الاختلاف امثلة من الآيات ، واتى في بيان جوازه على ناحية ان كلا من المعنيين صحيح ، وان كل قراءة بمنزلة آية مستقلة ، ولا جرم ان يكون هذا الاختلاف فناً من فنون الايجاز الذي سلكه القرآن في ارشاده وتعليمه ٠

وقال الاشموني في كتابه منار الهدى : ولاشك ان القبائل كانت ترد على النبي (ص) وكان يترجم لكل أحد بحسب لغته فكان يمد قدر الألف والفين والثلاثة لمن لغته كذلك ، وكان يفخم لمن لغته كذلك ، ويرقق لمن لغته كذلك ، ويميل لمن لغته كذلك ، واما ما يفعله قراء زماننا من ان القارىء كل آية يجمع ما فيها من اللغات ، فلم يبلغنا وقوعه عن رسول الله (ص) ولا عن اصحابه قاله الشعراني في الدرر المنثورة في بيان فريدة العلوم المشهورة ٠

وان اول من اقتصر على جمع قراءة السبعة المشهورة اثناء المائة الرابعة احمد بن موسى بن العباس بن مجاهد ٠

واختلاف القراء اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تضاد وتناقض فان هذا محال ان يكون في كلام الله تعالى ٠

وقال الطحاوي : انما كانت السبعة للناس في الحروف لعجزهم عن

أخذ القرآن على غير لغاتهم لأنهم كانوا اميين لا يكتب الا القليل منهم فلما كان يشق على كل ذي لغة ان يتحول الى غيرها من اللغات ولو رام ذلك لم يتهيأ له الا بمشقة عظيمة فوسع لهم في اختلاف الالفاظ اذ كان المعنى متفقاً، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم الى لسان رسول الله (ص) ، فقدروا بذلك على تحفظ الفاظه فلم يسعهم حينئذ ان يقرأوا بخلافها • قال ابن عبدالبر : فبان بهذا ان تلك السبعة الاحرف انما كان في وقت خاص لضرورة دعت الى ذلك ، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الاحرف وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد •

قال ابن الحاجب في مختصره : القراءات السبع متواترة فيما ليس من قبيل الاداء كالمد والامالة وتخفيف الهمز ونحوها •

ولو لم تكن لكان بعض القرآن غير متواتر كملك ومالك ونحوهما وتخصص احدهما تحكم باطل لاستوائهما •

وقال صاحب التقرير والتحبير : قراءة السبعة ما كان منها من قبيل الاداء بان كان هيئة للفظ يتحقق بدونها ولا تختلف خطوط المصاحف به كالحركات والادغام في المثلين والمتقاربين وهو ادراج الاول منهما ساكناً في الثاني ، والاشمام ، والروم والتفخيم ، والامالة ، والقصر ، وتخفيف الهمزة ، واضدادها من الفك وعدم الادغام ، وعدم الروم ، والترقيق ، وعدم الامالة ، والمد وتخفيف الهمز ـ لا يجب تواترها ، وخلاف ما كان من قبيل الاداء مما اختلف بالحروف ( كملك ) المنسوب قراءته الى من عدا الكسائي وعاصما ( ومالك ) المنسوب قراءته اليهما ، ويسمى بقبيل جوهر اللفظ متواتر • ثم قال : وقد نظر العلامة الشيرازي في كون ما من قبيل الاداء كالحركات لا يجب تواتره بخلاف ما كان منه ، لأن الحركات وما معها ايضاً قرآن •

لنا في ان ما من قبيل الأداء ، انه قرآن فوجب تواتره ، ضرورة أن جميع القرآن متواتر اجماعاً لكون العادة قاضية به . قال المخالف : هذه القراءات آحاد لانها منسوبة الى سبعة نفر ، والتواتر لا يحصل بهذا العدد فيما اتفقوا عليه فضلا عما اختلفوا فيه . أجيب بان نسبة القراءات السبع اليهم لاختصاصهم بالتصدي للاشتغال بها واشتهارهم بذلك ، لا لأنهم النقلة لها خاصة ، بمعنى أن روايتهم مقصورة عليهم ، بل عدد التواتر موجود معهم في كل طبقة الى ان ينتهي الى النبي صلى الله عليه وسلم .اهـ

---

## القـراء

علمنا مما تقدم ان القرآن الكريم قد نزل على سبعة احرف ، وان تلك الاحرف قد اخذها الصحابة الكرام عن النبي (ص) فحصل بذلك بعض الاختلاف في كيفيات الحروف وادائها وبعض الكلمات واعرابها ، وقد تناقل المسلمون ذلك باسناد صحيح وتواتر ذلك الاسناد الى ان استقر في القراء السبعة المشهورين وسميت قراءاتهم بالقراءات السبعة ، وتوجد ثلاث قراءات اخرى آحادية واربعة شاذة فيكون المجموع اربعة عشر قراءة . قال ابن قتيبة وابن الجزري وابو الفضل الرازي : ان الاحرف السبعة هي الاوجه التي يقع بها الاختلاف في القراءة مثل الحركات وابدال حرف بآخر قريب المخرج منه وتقديم وتأخير .

وقال ابن ابي هاشم : ان السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها ان الجهات التي وجهت اليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه اهل

تلك الجهة ، وكان المصاحف خالية من النقط والشكل ، قال فثبت اهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعاً عن الصحابة بشرط موافقة الخط وتركوا ما يخالف الخط امتثالا لأمر عثمان الذي وافقه عليه الصحابة لما رأوا في ذلك من الاحتياط للقرآن ، فمن ثم نشأ الاختلاف بين قراء الامصار مع كونهم متمسكين بحرف واحد من السبعة • وقد ذكر تفصيل ذلك في البحث السابق فلا نطيل الكلام فيه الآن بل نكتفي بذكر مختصر عن تراجم القراء السبعة ورواتهم ، واليك ذلك :

١ ـ ابو عبدالله نافع بن عبدالرحمن بن ابي نعيم الليثي المدني ، احد القراء السبعة ، ثقة صالح ، اصله من اصبهان ، وكان اسود اللون صبيح الوجه حسن الخلق فيه دعابة • أخذ القراءة عن سبعين شيخاً من التابعين ، وروى عنه القراء عرضاً وسماعاً ، وانتهت اليه رياسة القراءة بالمدينة بعد التابعين • وتوفي بالمدينة سنة ١٦٩هـ •

وأشهر رواته اثنان :

أ ـ عثمان بن سعيد المصري الملقب بـ (ورش) شيخ القراء المحققين ، وامام اهل الاداء المرتلين ، انتهت اليه رئاسة القراء بالديار المصرية في زمانه ، ولد سنة ١١٠ بمصر ، وقد رحل الى نافع وعرض عليه القرآن عدة مرات ، وقد لقبه نافع بالورشان لأنه كان على قصره يلبس ثياباً قصاراً وكان اذا مشى بدت رجلاه مع اختلاف الوانه ـ والورشان طائر معروف ـ ثم خفف فقيل ورش ولزمه ذلك حتى صار لا يعرف الا به ، ولم يكن فيما قيل أحب اليه منه ، فيقول : استاذي سماني به • وتوفي بمصر سنة ١٩٧ عن سبع وثمانين سنة •

ب ـ عيسى بن مينا مولى بني زهرة الملقب بـ ( قالون ) ربيب نافع

وقارىء المدينة ونحويها وقد سماه نافع بقالون لجودة قراءته فان قالون في اللغة الرومية جيد • ولد سنة ١٢٠ وتوفي سنة ٢٢٠ عن عمر يناهز المائة •

٢ ـ عبدالله بن كثير المكي الداري امام اهل مكة في القراءة • ولد بمكة سنة ٤٥ وقد أدرك قسما من الصحابة الكرام وأخذ عنهم وبقي الامام المجمع عليه في القراءة بمكة الى أن توفي سنة ١٢٠ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين •

وأشهر رواته اثنان :

أ ـ محمد بن عبدالرحمن المخزومي المكي الملقب بقنبل المولود سنة ١٩٥ وقد سمي بقنبل لاستعماله دواء يقال له قنبيل لداء كان به فلما اكثر منه عرف به وحذفت الياء تخفيفاً وقد انتهت اليه رياسة الاقراء بالحجاز ورحل الناس اليه من الاقطار ، ثم انه طعن في السن وشاخ وقطع الاقراء قبل موته بسبع سنين ، وقد توفي سنة ٢٩١ عن ست وتسعين سنة •

ب ـ احمد بن محمد البزي ـ والبزة الشدة ـ المكي مقرىء مكة ومؤذن المسجد الحرام • ولد سنة ١٧٠ وتوفي سنة ٢٥٠ عن عمر يقارب الثمانين •

٣ ـ ابو عمرو زيان بن العلاء التميمي المازني البصري • ولد سنة ٦٨ ثم قرأ بالبصرة والكوفة ، وهو اكثر القراء شيوخاً ، وكان اعلم الناس بالقرآن والعربية مع الصدق والثقة والزهد • وقد توفي بالكوفة سنة ١٥٥ عن عمر يقارب التسعين •

وأشهر رواته اثنان :

أ ـ ابو عمر حفص بن عمر بن عبدالعزيز بن صهبان الدوري الازدي البغدادي الضرير نزيل سامراء امام القراء وشيخ الناس في زمانه ، وهو

اول من جمع القراءات • رحل في طلب القراءات وقرأ بسائر الحروف السبعة وبالشواذ وسمع من ذلك شيئاً كثيراً • توفي سنة ٢٤٦ •

ب ـ أبو شعيب صالح بن زياد السوسي الرقي وقد كان مقرئاً ضابطاً محرراً ثقة ، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً ، وتوفي سنة ٢٦١ عن عمر يقارب السبعين •

٤ ـ أبو عمران عبدالله بن عامر اليحصبي الحميري امام أهل الشام في القراءة والذي انتهت اليه مشيخة الاقراء بها ، أخذ القراءة عن بعض كبار الصحابة ، كان عالماً ثقة فيما أتاه ، حافظاً لما رواه ، عارفاً فاهماً من افاضل المسلمين وخيار التابعين وأجله الراوين • ولد سنة ٨ من الهجرة في البلقاء بضيعة يقال لها ( رحاب ) ، وقبض رسول الله (ص) وله من العمر سنتان ، وبعد فتح دمشق ذهب اليها وتوفي فيها سنة ١١٨ •

وأشهر رواته اثنان :

أ ـ أبو الوليد هشام بن عمار السلمي الدمشقي امام اهل دمشق وخطيبهم ومقرؤهم ومحدثهم ومفتيهم • ولد سنة ١٥٣ ، وكان فصيحاً واسع العلم والرواية والدراية ، رزق كبر السن وصحة العقل والرأي فارتحل الناس اليه في القراءات والحديث توفي سنة ٢٤٥ •

ب ـ ابو عمر عبدالله بن احمد بن بشر بن ذكوان القريشي الفهري الدمشقي الامام الراوي الثقة شيخ الاقراء بالشام وامام جامع دمشق لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بالشام ولا بمصر ولا بخراسان في زمانه اقرأ منه ، ولد سنة ١٧٣ وتوفي سنة ٢٤٢ •

٥ ـ ابو بكر عاصم بن بهدلة أبي النجود الاسدي الكوفي ، شيخ الاقراء بالكوفة واحد القراء السبعة ، جمع بين الفصاحة والاتقان والتحرير

والتجويد ، وكان أحسن الناس صوتاً بالقرآن توفي سنة ١٢٧ بالكوفة .

وأشهر رواته اثنان :

أ ـ حفص بن سليمان الاسدي الكوفي ربيب عاصم وابن زوجته وأعلم الناس بقراءته ، وقد اقرأ الناس دهراً ، ولد سنة ٩٠ وتوفي سنة ١٨٠ .

وان المصاحف التي بين أيدينا الآن هي بحسب رواية حفص هذا لقراءة عاصم عن عبدالله بن حبيب السلمي عن علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وزيد بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنهم اجمعين عن النبي (ص) .

ب ـ ابو بكر شعبة بن عياش الاسدى الكوفي ، وكان اماماً كبيراً عالماً عاملا ، وكان من أئمة السنة ، وعمر دهراً الا انه قطع الاقراء قبل موته بسبع سنين ، وتوفي سنة ١٩٣ وقد ناهز المائة .

٦ ـ ابو عمارة حمزة بن حبيب الكوفي التيمي أحد القراء السبعة ولد سنة ٨٠ واليه صارت الامامة في القراءة بعد عاصم والأعمش ، وكان اماماً حجة ثقة ثبتاً بصيراً بالفرائض عارفاً بالعربية حافظاً للحديث عابداً زاهداً توفي سنة ١٥٧ بحلوان ( قصر شيرين ) .

واشهر رواته اثنان :

أ ـ خلاد بن خالد الشيباني الكوفي الصيرفي امام في القراءة ثقة عارف محقق وهو ضابط توفي سنة ٢٢٠ .

ب ـ ابو محمد خلف بن هشام البزار البغدادي الاسدي احد القراء العشرة ولد سنة ١٥٠ وكان ثقة كبيرا زاهدا عابدا عالما توفى سنة ٢٢٩ ببغداد وهو مختف من الجهمية .

٧ ـ علي بن حمزة الكسائي النحوي الامام الذي انتهت اليه رياسة الاقراء بالكوفة بعد حمزة الزيات ، وكان الكسائي يتخير القراءات فاخذ

من قراءة حمزة ببعض وترك بعضا وكانت القراءة علمه وصناعته • وقال ابن الانباري : اجتمعت في الكسائي أمور : كان أعلم الناس بالنحو وأوحدهم في الغريب وكان اوحد الناس في القرآن فكانوا يكثرون عليه حتى لا يضبط الاخذ عليهم فيجمعهم ويجلس على كرسي ويتلو القرآن من اوله الى آخره وهم يسمعون ويضبطون عنه حتى التقاطع والمبادىء توفى سنة ١٨٩ بمدينة طوس •

وأشهر رواته اثنان :

أ ـ حفص بن عمر الدوري الذي تقدم الكلام عنه •

ب ـ ابو الحارث الليث بن خالد البغدادي أحد الحذاق الماهرين في ضبط القراءات توفي سنة ٢٤٠ •

# التطريب في التلاوة

## واسلوب القرآن الموافق لذلك

ذكر اكثرية العلماء ان رفع الصوت بقراءة القرآن والتطريب به مستحب ومنهم أبو حنيفة والشافعي رضى الله عنهما ، لأن القارىء اذا أحسن الصوت بالتلاوة كان أوقع في النفوس وأسمع في القلوب ، وما من أحد يسمع قراءة المجودين أولي الاصوات الحسنة الا ويشعر بتأثير عظيم وانشراح في صدره ، وخضوع وخشوع في قلبه ، وندم وتقريع لنفسه على ما فرط في جنب الله تعالى • وقد كان لتلاوة القرآن بأصوات رخيمة تأثير عظيم لجذب العرب الى الاسلام ، وان اكثر الصحابة قد أسلموا لما سمعوا القرآن ، ومنهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلقد أعلن اسلامه عند سماعه القرآن في دار

شقيقته ، واننا نقرأ ان كثيراً من غير المسلمين قد امتدحوا القرآن وان لم يصدقوه لجمال وقعه في نفوسهم ، وحلاوة تلاوته في اسماعهم .

وقد كان المشركون يؤذون أبا بكر الصديق رضي الله عنه ويمنعونه من الصلاة في الحرم المكي ، ثم حاولوا منعه من رفع صوته بالقرآن في المسجد الذي بناه في فناء بيته لما رأوا من اقبال الناس رجالا ونساء على سماع ما يقرأ ، لتأثير قراءته في النفوس . لأن نغمات القرآن تنتقل الى حواس السامع الباطنية حتى تسيطر عليها وتقودها مرغمة الى الاصغاء والانصات ، ولقد بلغ من سيطرة نغمات القرآن على الحواس الباطنية انه يكفي ان نقال آية فيها خطأ امام شخص لا يحفظ القرآن ولكن له المام يسير ببعض سوره لكي يدرك ان في هذه الآية لفظاً قلقاً وان من الخير مراجعة المصحف . وروى البيهقي عن يحيى بن إكثم قال : دخل يهودي على المأمون فأحسن الكلام فدعاه الى الاسلام فأبى ، ثم بعد سنة جاء مسلماً فتكلم في الفقه فاحسن الكلام ، فسأله المأمون ما سبب اسلامه ، قال : انصرفت من عندك فامتحنت هذه الاديان ، فعمدت الى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وادخلتها على البيعة فاشتريت مني ، وعمدت الى الانجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وادخلتها البيعة فاشتريت مني ، وعمدت الى القرآن فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وادخلتها الى الوراقين فتصفحوها فوجدوا فيها الزيادة والنقصان فرموا بها فلم يشتروها ، فعلمت ان هذا الكتاب محفوظ فكان هذا سبب اسلامي .

قال جبير بن مطعم سمعت رسول الله (ص) يقرأ في المغرب بالطور فما سمعت احداً أحسن صوتاً أو قراءة منه وخلت فؤادي قد انصدع ، وكان جبير اذ ذاك مشركا فأثرت فيه قراءته (ص) فأعلن اسلامه . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « زينوا القرآن باصواتكم » وقال : ليس منا من لم يتغن

بالقرآن وقال : « لله اشد آذانا الى الرجل الحسن الصوت من صاحب القينة الى قينته » وعن عائشة زوج النبي رضي الله عنهـا انهـا قالت : أبطأت على رسول الله (ص) ليلة بعد العشاء ثم جئت فقال : أين كنت ؟ قلت : كنت أسمع قراءة رجل من أصحابك لم أسمع مثل قراءته وصوته من أحد ، قالت : فقام فقمت معه حتى أستمع له ثم التفت الي فقال : هذا سالم مولى ابي حذيفة : الحمد لله الذي جعل في أمتي مثل هذا .

وكان أبو موسى الاشعري رضي الله عنه يقرأ يوماً القرآن ، فمر بـه رسول الله (ص) ، ثم رآه عليـه الصـلاة والسلام في اليوم الثاني فقال له : يا أبا موسى لو رأيتني وأنا أستمع قراءتك البارحة ، لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود ، فقـال أبو موسى : أما والله لو علمت أنك تسـمع قراءتي لحبرتها لك تحبيراً . وان مزامير داود أنزلت لأجل الترنم بها ، وكانت الطير تحشر وتجمع لصوته وترجع ترنيمه . ولقد كانت القراءة في صدر الاسلام اما تحقيقاً[١] أو حدراً أو تدويراً . فلما كانت المائة الثانية كان من قرأ بالتلحين والتطنين عبيدالله ابن ابي بكرة وكانت قراءته حزناً ليست على شيء من الحان الغناء والحداء ، فورث ذلك عنه حفيده عبدالله بن عمر بن عبيدالله ، فهو الذي يقال له قراءة ابن عمر وأخذها عنه الأباضي ، ثم أخذها سعيد بن العلاف واخوه عن الاباضي وصار سـعيد رأس هـذه القراءة في زمنه ، وعرفت به ، لأنه اتصل بالرشيد فأعجب بقراءته وكان يحظيه ويعطيه حتى عرف بين الناس بقارىء امير المؤمنين[١] .

---

(١) التحقيق : اعطاء كل حرف حقه على مقتضى ما قرره العلماء مـع ترتيل وتوأدة . والحدر : ادراج القراءة وسرعتها مع مراعاة شروط الاداء الصحيحة . والتدوير : التوسط بين التحقيق والحدر .

(١) اعجاز القرآن للرافعي .

قال الحافظ ابن حجر في شرحه للبخاري ما ملخصه : ولاشك في أن النفوس تميل الى سماع القرآن بالترنم اكثـــر من ميلها لمن لا يترنم ، لأن للتطريب تأثيراً في رقة القلب واجراء الدمع ، وكان بين السلف اختلاف في جواز تلاوة القرآن بالالحان ، أما تحسين الصوت وتقديم حسن الصوت على غيره فلا نزاع في ذلك ، وقد نص الشافعي في المختصـر على جواز القراءة بالالحان ، وعن رواية الربيع الجيزي انها مكروهة • وقد قال الرافعي في هذين القولين ان المكروه أن يفرط في المد وفي اشباع الحركات حتى يتولد من الفتحة الف ومن الضمة واو ومن الكسرة ياء ، أو يدغم في غير موضع الادغام ، فان لم ينته الى هذا الحد فلا كراهة • وقـال النووى : ويستحب طلب القراءة من حسن الصوت والاصغاء اليه •

ويجب أن تراعى في القراءة قوانين التجويد فان حسن الصوت يزداد حسناً بذلك ، وان خرج عنها أثر ذلك في حسنه ، وغير الحسن ربما اضطر الى مراعاتها •

ويجب أن يراعى القارىء الاداء أولا ، وأن لا يخل به ، ومن راعى الانغام دون الاداء فقد أثم ، من راعاهما معاً فلاشك انه من المصلحين •

ولقد جاء اسلوب القرآن الكريم مخالفاً كل المخالفة لأساليب العرب في شعرها ونثرها ، وتركب من آيات تنتهي في الكثير الغالب بحرف صحيح يسبقه حرف علة ساكن كقوله تعالى « ن • والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » • « الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان علمه البيان » « نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المرسلين • بلسان عربي مبين » ففي هذه الأمثلة تجد الآيـات منتهيـة بحرف صحيح تسبقه واو في الطائفة الاولى ، والف في الثانية ، وياء في الثالثة ، وتجد لكل نوع من ثلاثتها صوتاً يحلو في السمع ، وترتاح له النفس ، وتتقبله الروح قبولا حسناً •

ويستعمل القرآن في كل موطن من المواطن طائفة خاصة من الحروف المتحدة المخرج ، كاستعمال حروف الاطباق والقلقلة في سورة « ق » فتجد فيها حروف القاف والطاء والجيم مترددة من أول السورة الى آخرها كأنها تصنع مع حروف أخرى ثوباً منسوجاً من فتلات خاصة . قال تعالى : « ق . والقرآن المجيد بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب » الخ .

ومن ذلك أيضا تردد الحرف الواحد مرات كثيرة في الآية الواحدة حتى يلائم نسجها ولا تنبو كلماتها ، وحتى لا يقع في الكلام تنافر ، كتردد حرف اللام ٢٢ مرة في آية الكرسي ، وتردد الهاء في نفس الآية نحو ١٣ مرة ، وكتردد حرف الراء في سورة القمر ، والنون في سورة الرحمن وهكذا ، فاذا أخرجت الحروف المتحدة الاجناس من مقاطعها متوافقة في الصفات ، متحدة الاقدار في مقاييس حركاتها ومداتها بحيث تكون أجناس الحروف التي لها التفخيم مفخمة ، والتي لها الشدة شديدة ، والتي لها الهمس مهموسة ، والتي لها الرخاوة رخوة ، وهكذا ، ويكون مقدار النطق بالحرف الذي لم يجاوره حرف المد نصف الف . ومقدار النطق بالحروف التي جاورتها حروف المد ولم تتصل بها الهمزة ولم يليها السكون حركتين ، ومقدار المدود التي زادت عن طبيعتها بسبب الهمزة والسكون أزيد من حركتين ، فتمد الى الف ونصف والى الفين ونصف والى ثلاث الفات ، وطول المدات وقصرها يختلف باختلاف وجوه المد وانواعه ، واقصى المد ثلاث الفات . والقراءة بالمرانة .

ولاشك في أن القراء تختلف قراءتهم باختلاف أصواتهم ، وتتفاوت تلاوتهم بتفاوتهم في حسن الاداء والمهارة بالقراءة ، وجودة التلاوة ، وقوة الحفظ ، فبعضهم أندى من بعض صوتا ، وأمد قراءة ، وأجود ترتيلا ،

وأزين وأعلى في السمع جرسا ونغمة . فبعضهم يقصر في كل ذلك أو في بعضه عن مرتبة الحذاق المهرة في القراءة ، والميزان الذي توزن به أقدار القراء وتقاس به درجة التفاضل فيما بينهم : ينحصر فيما أوتي القارىء من قوة في نبرات الصوت وجهارته ، وامتداد النفس مع جودة النطق بالحروف واخراجها من مخارجها الحقيقية ، واعطائها ما تستحقه من صفات وهيئات فنية يعرفها الحذاق بفن التجويد ، ويضاف الى ذلك ما أوتيه القارىء من مزية التعبير عن المعنى تعبيراً صادقاً بالوقف عند النهايات ، والابتداء حيث تحسن البدايات ، مع تكييف الصوت بكيفيات لطيفة دقيقة تشعر السامع بالمعنى ، وتقذفه في نفسه قذفاً ، وتصله بحلاوة الصوت من صماخ الاذن الى شغاف القلب ، بشرط الا تخرج به تلك الكيفيات الصوتية عن القواعد التجويدية الى محض الكيفيات الغنائية او التمثيلية[1] .

وليس يخفى ان مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي ، وان هذا الانفعال بطبيعته انما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه مداً أو غنة أو ليناً أو شدة ، وبما يهيىء له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النفس من أصولها ، ثم هو يجعل الصوت الى الايجاز والاجتماع والاطناب والبسط بمقدار ما يكسبه من الحدة والاهتزاز وبعد المدى ونحوها مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقى .

فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن على الاداء الصحيحة لرأيناه ابلغ ما تبلغ اليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته من اعماق النفس ، وهو من هذه الجهة يغلب بنظمه على كل طبع عربي حتى ان القاسية قلوبهم من اهل الزيغ والالحاد ومن لا يعرفون لله آية في الآفاق ولا في أنفسهم لتلين قلوبهم وتهتز عند سماعه لأن فيهم طبيعة انسانية ولأن تتابع الاصوات على نسب معينة

---

(١) الاسلام .

بين مخارج الاحرف المختلفة هو بلاغـــة اللغة الطبيعية التي خلقت في نفس الانسان فهو متى سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان ، وعلى هذا وحده يؤول الاثر الوارد في أن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً لأنه يجنب هذا الكمال اللغوي ما يعد نقصاً منه اذا لم تجتمع اسباب الأداء في اصوات الحروف ومخارجها ، وانما التمام الجامع لهـذه الاسباب صفاء الصوت ، وتنوع طبقته واستقامـة وزنـه على كل حرف[1].

---

## آداب التلاوة والاستماع

ان على التالي للقرآن الكريم وجائب كثيرة يلزمه مراعاتها والأخذ بها والتأدب بها لأنه بتلاوته لكلام الله انما يناجي مولاه الذي أنعم عليه بنعمـة الايمان ، واجابة الدعوى الحقة ، كما أنه يتلقى أوامر الله ونواهيه ، ووعده ووعيده ، لذلك ذكر العلماء رحمهم الله تعالى آداباً كثيرة يلزم مراعاتها عند التلاوة نجتزيء بذكر جزء منها :

يستحب الوضوء لقراءة القرآن حفظاً لأنه من أفضل الاذكار ، وقـد كان النبي (ص) يكره أن يذكر الله تعالى الا على طهر ، ويفترض عليه الوضوء اذا كانت التلاوة بالمصحف لقوله عليـه الصلاة والسـلام في كتـاب عمرو بن حزم : لا يمس القرآن الا طاهر • وان يستاك تعظيما وتطهيراً لقوله (ص) : نظفوا أفواهكم فانها مجـاري القرآن • وان يجلس القارىء مستقبلا للقبلة متخشعاً بسكينة ووقار ، مطرقاً رأسه ، وان يستوي قاعداً ان كان في غير صلاة ، ولا يكون متكئاً ، وأن تـكون القراءة في مكان نظيف ،

---

(١) اعجاز القرآن للرافعي •

بثياب حسنة نظيفة ، لأنه مناج ربه ، والأفضل في المسجد ، وأن لا يقرأ في الاسواق ، ولا في مواطن اللغط واللهو ومجمع السفهاء ، وكذلك في الحمام والمواضع القذرة .

ويحسن التعوذ قبل القراءة لكي يكون السامع على علم من ذلك فينصت من أول القراءة ، كما أنه يستطيع سماع القراءة كلها ، واذا أخفى التعوذ ولم يعلم السامع يفوته شيء من المقروء .

ويسن الترتيل في قراءة القرآن ، والتأني في القراءة ، ويكره الاسراع فيها . قال في شرح المهذب : واتفقوا على كراهة الافراط في الاسراع ، كما اتفقوا على استحباب الترتيل للتدبر لأنه أقرب الى الاجلال والتوقير وأشد تأثيراً في القلوب ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » وقال « لله أشد أذناً الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة الى قينته » « وقال ليس منا من لم يتغن بالقرآن » .

وقد نعتت سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله (ص) بأنها كانت مفسرة حرفاً حرفاً . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب الي من ان أقرأ القرآن كله هذرمة . لأن الترتيل والتوأدة أقرب الى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الهذرمة والاستعجال .

وأن يؤدي القارىء لكل حرف حقه من الاداء ، حتى يبرز الكلام باللفظ تماماً ، وأن يؤدي للآيات حقها ، فاذا قرأ تهديداً لفظ به لفظ التهديد ، أو تعظيما لفظ به على التعظيم وأن نكون القراءة بالتدبر والتفهم اذ بذلك تنشرح الصدور وتتأثر القلوب ، وان تكون القراءة بالتفخيم لقوله عليه الصلاة والسلام : نزل القرآن بالتفخيم . وأن يقرأ على قراءة الرجال

لا أن يغير صوته بحيث يكون كصوت النساء ، وأن لا يجهر بعض على بعض في القراءة فيفسد على السامع حتى يبغض اليه ما سمع ويكون كهيئة المغالبة •

ويكره قطع القرآن لمكالمة أحد لأن كلام الله تعالى ينبغي الا يؤثر عليه كلام غيره ، لأن فيه استخفافاً بالقرآن ، ولأن اتباع القرآن بعضه بعضاً بالقراءة من البهجة ما يظهر عند الاتباع ويخفى عند التقطيع ، كما يكره الضحك والعبث والنظر الى ما يلهي • وقال مجاهد : اذ تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فامسك عن القرآن تعظيما حتى يذهب تثاؤبك •

ويجب على السامع عند سماعه تلاوة القرآن المجيد أن يقبل عليه اقبال الخاشع ، والاستماع له استماع الوجل الخائف ، مع تدبر معانيه ، وتفهم حكمه واسراره ، وليستشعر الادب مع الله عند سماع كلامه ، وليتلق الآيات بوقار وخشية ووجل ولاسيما آيات الوعيد والتهديد والتخويف • قال الله تعالى « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » وقال تعالى « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايماناً وعلى ربهم يتوكلون » • وأن ينصت لسماعه ولا يتكلم بشيء الى ان يفرغ التالي من تلاوته لقوله تعالى « واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » •

ويجب على كل مسلم أن يحرص على استماع القرآن عند قراءته كما يحرص على تلاوته ، وأن يتأدب في مجلس التلاوة •

# النسـخ

يطلق النسخ في اللغة على ازالة الشيء ومحوه كقولهم نسخت الشمس الظل أي ازالته ، ويطلق ايضاً على النقل والتحويل كقولك نسخت النحل اذا نقلتها من خلية الى أخرى .

وفي اصطلاح الاصوليين هو : رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي متراخ عنه ، وعلى هذا فليس من النسخ رفع الاباحة الاصلية ، ولا رفع الحكم بالموت والجنون ، ولا بيان الحكم بخطاب مقارن يفيد اخراج بعض ما تناوله الخطاب السابق بواسطة تقييده بنحو الشرط أو الغاية والاستثناء .

والنسخ قال به عامة المسلمين وخاصتهم الا أبا مسلم محمد بن بحر الاصفهاني المفسر فانه مع قوله بجواز وقوعه عقلا ينكر حصول شيء منه في القرآن الكريم .

والنسخ جائز عقلا ، لان الله تعالى هو العليم بعباده ، الحكيم في اعماله ، فقد يضع حكما ما ، ثم للحكمة والمصلحة يضع حكما آخر ينسخه ، وهو الآمر الناهي باختياره وليس في العقل ما يمنع من ان يأمر بشيء في وقت وينهى عنه في وقت اذا تخلفت تلك الدواعي والاسباب وقامت دواع واسباب أخرى مقامها ، فتقدير الحكم الاول للمصلحة والنفع العام ، والعدول عنه بفرض النسخ انما هو للمصلحة والنفع العام ايضاً ، ومثل ذلك مثل المريض يكون تناول الدواء مفيداً له حين مرضه ، مضراً له بعد شفائه ، وكالغذاء الذي يمنع الطبيب المريض عن تناوله عند مرضه ثم يحتم عليه تناوله بعد شفائه ، أو كالطفل يمنع في اول امره من تناول الطعام ثم يعطى الغذاء الخفيف حتى اذا شب زيد له في ذلك الى أن يتكامل .

ان الامم عرضة لأدوار شتى في التربية فقد يناسبها في وقت مالا يناسبها في وقت آخر •

ان الاحكام الالهية والاحكام الوضعية سواء في قبولها النسخ وان يستبدل بواحد منها غيره طبقاً لمقتضيات شؤون الحياة والاجتماع ، وانا نرى المجالس التشريعية في جميع الامم لاتنفك عن تغير وتعديل انظمتها وقوانينها بحسب حاجة الامة ومبلغ تقدمها ورقيها •

اما ثبوته شرعاً فادلته كثيرة منها قوله تعالى ( والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً وصية لازواجهم متاعاً الى الحول غير اخراج » فقد نسخت هذه الآية بقوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجاً يتربصن بانفسهن اربعة اشهر وعشرا ) ، فقد كان الواجب على المرأة التربص سنة اذا توفى عنها زوجها ووجوب الوصية لها بالنفقة والسكنى هذه المدة فنسخها الله تعالى بما هو اخف على المرأة الى اربعة اشهر وعشرا •• ومنها قوله تعالى ( ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ) الآية • فان هذه الآية تدل على وجوب ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من الكفرة فنسخها الله تعالى بما هو اخف على الامة الاسلامية بقوله ( الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفاً فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ) الآية • حيث اوجب صبر الواحد للاثنين •

ومن النسخ : نسخ التوجه في الصلاة لبيت المقدس بالتوجه للكعبة ، ونسخ وجوب صوم عاشوراء بوجوب صوم رمضان ، والوصية للوالدين والاقربين بآية المواريث •

اما حكمة النسخ فهي : ان الدين الاسلامي والتعاليم المحمدية نزلت تدريجياً لتربية قوم تأصلت في نفوسهم عادات ومألوفات اعتقدوها سبيل المكارم ووسائل المجد والفخار والعزة حتى انهم نيثورون من اجل كلمة

واحدة او دفع منقصة ولو آل الامر للهلاك والدمار وبذل النفس والمال •
فشعب هذا شأنه وقد اختاره الله تعالى للقيام بنصرة نبيه ونشر دينه ، ليس من الحكمة في شيء ان يساس قسراً ، وان تنتزع منه مألوفاته قهرا ، بل ينقل تدريجيا من حالة الى حالة اخرى ، حتى اذا ركن للثانية انتقل الى درجة تليها • وقد تدرج الشارع مع العرب الى ان اوصلهم الى الكمال والسعادة قليلا قليلا من حيث يأنسون ولا ينفرون ، مراعياً ضعفهم العقلي ، محافظاً على نفوسهم التي تختلف مواهبها وتتباين مشاربها ولا تعرف غير الانفة والعظمة • ويتجلى هذا في تحريم الخمر التي كان يتغنى بها شعراؤهم ويتحدث بها شجعانهم ، يرونها امارة الرجولة وعنوان الشهامة ، فجاءت الاحكام والآيات تستلها من نفوسهم رويداً رويداً ، حتى استقر أمرها على المنع البات • قال تعالى « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما » ، ثم قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » وبعد هذا التدرج والتفطن لما فيها من ضرر ومنافاة لمكانة العبد من ربه ، قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » •

وقد ثبت ان النسخ لم يقع في المشروعات الكلية من العقائد والاصول كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما يجب لله تعالى من تنزيه عما لا يليق به • كما أن النسخ لم يقع في المقاصد العامة التي ترمي الشرائع الى حفظها كالضروريات والحاجيات والتحسينات • ولم يرد النسخ على الاخبار لانه يستلزم الكذب في خبر الشارع وهو محال •

وقد اختلف العلماء في الآيات التي تناولها النسخ ، فقال بعضهم انها

عشرون وقال البعض انها اقل من ذلك • وعلى كل فالنسخ في القرآن الكريم قليل •

أما السور القرآنية باعتبار الناسخ والمنسوخ فاربعة اقسام :

١ ـ ليس فيه منسوخ ولا ناسخ وهو ثلاث واربعون سورة : الفاتحة ، ويوسف ، ويسن ، والحجرات ، والرحمن ، والحديد ، والصف ، والجمعة ، والتحريم ، والملك ، والحاقة ، ونوح ، والجن ، والمرسلات ، والنبأ ، والنازعات ، والانفطار والمطففين ، والانشقاق ، والبروج ، والفجر ، والبلد ، والشمس ، والليل ، والضحى ، والانشراح ، والقلم ، والقدر والبينة ، والزلزلة ، والعاديات ، والقارعة ، والتكاثر ، والهمزة والفيل ، وقريش ، والماعون ، والكوثر ، والنصر ، وتبت ، والاخلاص ، والفلق ،

٢ ـ فيه منسوخ وناسخ وهو خمس وعشرون سورة : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والانفال ، والتوبة ، وابراهيم ، ومريم ، والانبياء ، والحج ، والنور ، والفرقان ، والشعراء ، والاحزاب ، وسبأ ، والمؤمن ، والشورى ، والذاريات ، والطور ، والواقعة ، والمجادلة ، والمزمل ، والمدثر ، والتكوير ، والعصر •

٣ ـ فيه منسوخ فقط وهو أربعون سورة : الانعام ، والاعراف ، ويونس ، وهود ، والرعد ، والحجر ، والنحل ، والاسراء ، والكهف ، وطه ، والمؤمنون ، النمل ، والقصص ، والعنكبوت ، والروم ، ولقمان ، وألم السجدة ، وفاطر ، والصافات ، وص ، والزمر ، وحم السجدة ( او فصلت ) ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والاحقاف ، ومحمد ، وق ، والنجم ، والقمر ، والممحتنة ، ون ، والمعارج ، والقيامة ، والدهر ، وعبس ، والطارق ، والغاشية ، والتين ، والكافرون •

٤ ـ فيه ناسخ فقط وهو ست سور : الفتح ، والحشر ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، والاعلى •

وذكر عن سبب بقاء الآيات التي نسخت أحكامها في القرآن بان القرآن يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به ويتلى لكونه كلام الله فيثاب عليه ، فتركت التلاوة لهذه الحكمة ، ولما كان النسخ غالباً للتخفيف فقد ابقيت التلاوة تذكيراً للنعمة ورفع المشقة •

وقد وقع النسخ في التوراة والانجيل ، وذكر العلماء امثلة كثيرة من ذلك تجتزيء هنا بذكر طرف منها :

قد كانت سارة زوجة ابراهيم عليه السلام أخته من أبيه كما يفهم من الآية الثانية عشرة من سفر التكوين اذ يقول فيها : ( انها أختي بالحقيقة ابنة أبي وليست ابنة أمي وقد تزوجت بها ) ومعلوم ان زواج الاخت في الشريعة الموسوية حرام وفي منزلة الزنا والزوج ملعون وقتل الزوجين واجب كما تدل عليه الآية التاسعة من الباب الثامن عشر من سفر الاحبار وهي : ( لا تكشف عورة اختك من ابيك كانت أو من أمك التي ولدت في البيت او خارجاً من البيت ) ويؤخذ لعن المتزوج باخته من الآية الثانية والعشرين من الباب السابع والعشرين من كتاب الاستثناء اذ تقول « ملعون من يضاجع اخته من ابيه وامه » فلو لم يكن الاقتران بالاخت جائزاً قبل آيات التوراة هذا لما اتخذ ابراهيم اخته سارة حلالاً له ولكان داخلا في جملة من لعنتهم آيات التوراة •

وان الشريعة الموسوية تبيح للرجل أن يطلق زوجته بكل علة وان يتزوج بها رجل آخر بعد الخروج من بيت الاول كما في الباب الرابع والعشرين من كتاب الاستثناء ، ولكن لا يجوز الطلاق في شريعة عيسى عليه السلام الا بعلة الزنى ، وكذا لا يجوز لآخر زواج المطلقة بل هو

بمنزلة الزنى كما في الباب الخامس والتاسع عشر من انجيل متى • وقد اعترض الفريسيون على عيسى عليه السلام في هذه المسألة فاجابهم بقوله : « ان موسى ماجوز لكم طلاق نسائكم الا لقساوة قلوبكم واما من قبل فانه لم يكن كذلك وانا أقول لكم ان كل من طلق زوجته لغير علة الزنى وتزوج باخرى فقد زنى ومن يتزوج بتلك المطلقة يزني ) •

ومنها ان كثيراً من الحيوانات كانت محرمة اما جملتها أو بعض أجزائها في شريعة موسى ثم جاء عيسى فاحلها ناسخا احكام التوراة فيها •

ومنها تعطيل الاعمال في السبت وقتل من يعمل فيه ، فقد جاء في الباب الخامس عشر من سفر العدد قوله ( ولما كان بنو اسرائيل في البرية وجدوا رجلا يلقط حطباً يوم السبت فقبلوا به الى موسى وهرون والجماعة كلها فالقوه في السجن لانهم لم يكونوا يعرفون ما يجب ان يفعلوا به فقال الرب لموسى فليقتل هذا الانسان ويرجمه كل الشعب بالحجارة خارجا من المحلة فاخرجوه ورجموه بالحجارة ومات كما أمر الرب ) • وكان اليهود المعاصرون للمسيح عليه السلام يؤذونه ويريدون قتله لاجل عدم تعظيم السبت كما جاء في الآية السادسة من الباب الخامس من انجيل يوحنا : ( ومن أجل ذلك طرد اليهود عيسى وطلبوا قتله لانه قد فعل تلك الاشياء يوم السبت ) • وقد بين العهد القديم علة تقديس يوم عيد الفطير بقوله كما في الباب الثالث والعشرين من سفر الاخبار : ( باني اخرج جيوشكم من ارض مصر فاحفظوا هذا اليوم الى اجيالكم سنة الى الدهر ) ثم جاءت شريعة عيسى عليه السلام فنسخت جميع ذلك • قال يشوب هارسلي في ذيل شرح آية الاعياد ( زال سبب كنيسة اليهود وماشى المسيحيون في عمل سبتهم على رسوم طفولية الفريسيين » •

ثم تأتي قضية الاختتان فقد أوجبته شريعة موسى وقد ختن عيسى عليه

السلام كما في الآية الحادية والعشرين من الباب الثاني من انجيل لوقا وللمسيحيين الى اليوم صلاة معينة يؤدونها في يوم ختان المسيح ، وانما نسخه الحواريون في عهدهم كما في الباب الخامس عشر من اعمال الحواريين ، وتشدد مقدسهم بولس في نسخ هذا الحكم واغرق حتى زعم ان من اختتن لا ينفعه المسيح كما في الباب الخامس من رسالته الى أهل غلاطية على أن المسيحيين لم يكتفوا بأن تنسخ شريعة موسى بشريعة مثلها الهية كشريعة عيسى بل ان الحواريين أنفسهم كانوا هم الذين ينسخون ما يشاؤون .

ومن هذا ان الحواريين بعد المشاورة نسخوا جميع الاحكام العملية في التوراة الا أربعة . ذبيحة الصنم والدم والمخنوق والزنى فأبقوا حرمتها كما في الباب الخامس عشر من اعمال الحواريين ، ثم جاء بولس بعد ذلك فاحلها جميعاً الا الزنى .

---

## المحكم والمتشابه[1]

الاحكام في الاصل المنع والدفع ، ومادة حكم تفيد ذلك ومنه حكم الحاكم لانه منع الظالم ، وحكمة اللجام ـ بالتحريك ـ ما احاط بحنك الفرس من لجامه . واستعمل الاحكام في الاتقان والتوثيق لان ذلك بمنع تطرق ما يضاد المقصود ، ولذا سميت الحكمة حكمة حقيقة او مجازاً مشهوراً .

واما المتشابه فاصله التماثل وهو أن يكون شيء مشابهاً لآخر لأن مشابهة كل منهما لآخر توجب قوة الشبه حتى تتعذر التفرقة قال تعالى « ان البقر تشابه علينا وانا ان شاء الله لمهتدون » .

---

(١) لخصنا هذا البحث عن مقال للعلامة السيد محمد الطاهر ابن عاشور مع بعض الاضافات .

وقد اختلف علماء الاسلام في تعيين المقصود من المحكم والمتشابه هنا على اقوال مرجعها الى تعين الوضوح والخفاء ، فعن ابن عباس : ان المحكم مالا تختلف فيه الشرائع ، كتوحيد الله تعالى ، وتحريم الفواحش • وان المتشابه هو المجملات التي لم تبين ، كحروف أوائل السور •

وللجمهور مذهبان احدهما : المحكم ما اتضحت دلالته ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه • وثانيهما ، ان المحكم الواضح الدلالة ، والمتشابه خفيها • فالنص والظاهر هما : المحكم لاتضاح دلالتهما وان كان احدهما – أي الظاهر – يتطرقه احتمال ضعيف ، والمجمل والمؤول هما المتشابه لاشتراكهما في خفاء الدلالة ، وان كان احدهما – أي المؤول – دالا على مرجوح يقابله معنى مرجوح آخر • قال الشاطبي : فالتشابه حقيقي واضافي ، فالحقيقي مالا سبيل الى فهم معناه ، وهو المراد من الآية « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم » والاضافي ما اشتبه معناه لاحتياجه الى مراعاة دليل آخر ، فاذا تقصى المجتهد أدلة الشريعة وجد فيها ما يبين معناه ، والتشابه بالمعنى الحقيقي قليل جداً في الشريعة ، وبالمعنى الاضافي كثير •

وقد دلت هذه الآية « هو الذي انزل عليك الكتاب الخ » على ان من القرآن محكما ومتشابها ، ودلت آيات أخر على ان القرآن كله محكم : كتاب أحكمت آياته •• تلك آيات الكتاب الحكيم » ، والمراد انه أحكم واتقن في بلاغته وفصاحته ، كما دلت آيات على ان القرآن كله متشابه : « الله نزل احسن الحديث كتاباً متشابهاً » والمعنى انه تشابه بين الحسن والبلاغة والحقيقة وذلك معنى قوله « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » فلا تعارض بين هذه الآيات لاختلاف المراد بالاحكام والتشابه •

# سبب ورود المتشابه في القرآن

وسبب وقوع المتشابهات في القرآن هو كونه دعوة وموعظة وتعليما وتشريعاً باقياً ومعجزة في آن واحد ، وخوطب به قوم لم يسبق لهم عهد بالتعليم والشرائع فكان جائياً على اسلوب مناسب يجمع هذه الامور الثلاثة بحسب حال المخاطبين الذين لم يعتادوا الاساليب التدريسية والامالي العلمية، وانما كانت هجيراهم الخطابة والمقاولة ، فاسلوب المواعظ والدعوة قريب من اسلوب الخطابة وهو لذلك لا يأتي على اساليب الكتب المؤلفة للعلم والقوانين الموضوعة للتشريع فاودعت العلوم المقصودة منه في تضاعيف الموعظة والدعوة وكذلك اودع فيه التشريع فلا تجد احكام النوع من المعاملات كالبيع متصلا بعضها ببعض بل تلقيه موزعا على حسب ما اقتضته مقامات الموعظة والدعوة ليخف تلقيه على السامعين ويعتادوا علم مالم يألفوه في اسلوب قد ألفوه فكانت متفرقة يضم بعضها الى بعض بالتدبر ٠

ثم ان العلوم التي تعرض لها القرآن هي من العلوم العليا اذ هي علوم ما وراء المادة وعلوم مراتب النفوس وعلوم النظام العمراني وعلوم الحكمة وعلوم الحقوق ، وفي ضيق اللغة الموضوعة عن الايفاء بغايات مرادات هاته العلوم وقصور حالة استعداد افهام عموم المخاطبين لها ما اوجبت تشابها بين مدلولات الآيات الدالة عليها ٠

وإعجاز القرآن منه اعجاز نظمي ، ومنه اعجاز علمي ، وهو ضرب عظيم من الاعجاز ، فلما تعرض القرآن الى بعض دلائل الاكوان وخصائصها فيما تعرض اليه جاء به محكما بعبارة تصلح لحكاية حالته على ما هو في نفس الامر ، وربما كان ادراك كنه حالته في نفس الامر مجهولا لاقوام فيعدون تلك الآي الدالة عليه من المتشابه ، فاذا جاء قوم بعدهم فادركوا المراد منها

علموا ان ما عده الذين قبلهم متشابها ما هو الا محكم ، على أن من مقاصد القرآن أمرين آخرين :

أحدهما : كونه شريعة دائمة وذلك يقتضي فتح أبواب عبارته لمختلف استنباط المستنبطين حتى يؤخذ منه أحكام الاولين والآخرين .

وثانيهما : تعويد حملة هذه الشريعة وعلماء الامة بالتنقيب والبحث واستخراج المقاصد من عويصات الادلة حتى تكون طبقات علماء الامة صالحة في كل زمان لمشاركة المشرع في مراده من التشريع ، ولو صيغ لهم التشريع في اسلوب سهل التناول لاعتادوا العكوف على ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة . من أجل هذا كانت صلوحية عباراته لاختلاف منازع المجتهدين قائمة مقام تجديد الكتب والتآليف في اختلاف أنظمة التعليم .

فاذا علمت هذا علمت أصل السبب في وجود ما يسمى بالمتشابه في القرآن .

---

## مراتب التشابه

وبقي أن نذكر مراتب التشابه وتفاوت اسبابها ، وانها فيما انتهى اليه استقراؤنا الآن عشر مراتب :

اولاها : معان قصد ايداعها في القرآن وقصد اجمالها اما لعدم قابلية البشر لفهمها ولو في الجملة ان قلنا بوجود المجمل الذي استأثر الله به ، ونحن لانختاره ، واما لعدم قابليتهم لفهمها بالكنه فالقيت اليهم على وجه الجملة ، او لعدم قابلية بعضهم في عصر او جهة لفهمها بالكنه ، وهذا مثل احوال القيامة وبعض شؤون الربوبية ، كالتجلي في ظل الغمام والرؤية والكلام ونحو ذلك .

ثانيتها : معان قصد الاعلام بها وتعين ايرادها مجملة مع امكان حملها على معان معلومة لكن بتأويلات ، كحروف أوائل السور ، ونحو الرحمن على العرش استوى ، ثم استوى الى السماء .

ثالثتها : معان عالية ضاقت عن تمام كنهها اللغة الموضوعة لاقصى ما هو متعارف الواضعين لا لغير المتقارب فعبر عن تلك المعاني باقصى ما يقرب معانيها الى الافهام ، وهذا مثل اكثر صفات الله ، نحو : الرحمن الرؤوف المتكبر ، نور السموات والارض .

رابعتها : معان قصرت عنها الافهام في بعض احوال العصور ، واودعت في القرآن ليكون وجودها معجزة لاهل العلم في عصور قد يضعف فيها ادراك الاعجاز النظمي نحو : « والشمس تجري لمستقر لها . وارسلنا الرياح لواقح . يكور الليل على النهار ... وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب .. تنبت بالدهن .. زيتونة لا شرقية ولا غربية .. وكان عرشه على الماء .. ثم استوى الى السماء وهي دخان » وذكر يأجوج ومأجوج[1] .

خامستها : مجازات وكنايات مستعملة في لغة العرب الا ان ظاهرها أوهم معاني لا يليق الحمل عليها ، وتوقف فريق في محملها تنزيها نحو : « فانك باعيننا ... والسماء بنيناها بأيد ... ويبقى وجه ربك » ونحو المشاكلة في « يخادعون الله وهو خادعهم » .

سادستها : الفاظ من لغات العرب لم تعرف لدى الذين نزل القرآن بينهم من قريش والانصار مثل « وفاكهة وابا .. أو يأخذهم على

---

(١) هذه آيات دلت على معان عظيمة كشفتها العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخية والجغرافية وتفصيلها يحتاج الى تطويل .

تخوف •• ان ابراهيم لأواه حليم •• ولا طعام الا من غسلين » وقريب من هذا « وآتت كل واحدة منهن سكيناً » •

سابعتها : مصطلحات شرعية لم يكن للعرب علم بخصوصها فما اشتهر منها بين المسلمين معناه صار حقيقة عرفية كالتيمم والزكاة ، ومالم يشتهر بقي فيه اجمال كالربا •

ثامنتها : اساليب عربية جهلها اقوام فظنوا الكلام بها متشابهاً ، وهذا مثل زيادة الكاف في قوله تعالى « ليس كمثله شيء » ومثل قوله تعالى « وما كادوا يفعلون ••• وما ربك بظلام للعبيد » •

تاسعتها : آيات جاءت على عادات العرب ففهمها المخاطبون وجاء من بعدهم فلم يفهموها من المتشابه مثل قوله « فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما » « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا » فان المراد فيما شربوا من الخمر قبل تحريمها •

عاشرتها : افهام ضعيفة دخلن كثيراً من المتشابه وما هو منه ، وذلك افهام الباطنية وافهام الظاهرية كقوله تعالى « يوم يكشف عن ساق » •

# ترجمة القرآن

القرآن : هو اسم للفظ العربي المخصوص الدال على المعنى وقد اجمع على هذا أئمة المسلمين • وقال علماء الاصول في تعريف القرآن : هو اللفظ العربي المنزل للاعجاز المنقول الينا تواتراً • ويتضح من هذا ان اللفظ العربي الذي انزل على محمد (ص) للاعجاز لابد منه في تحقيق القرآنية وان مجرد المعنى لا يسمى قرآناً ولا كلام الله •

والترجمة : هي الاتيان بكلام من لغة يؤدي ما يؤديه كلام من لغة أخرى ويسد مسده فيما هو المقصود منه • وقيل هي نفسير الكلام بلسان آخر على وجه يستوفي كل المقصود منه •

والترجمة اما ان تكون لفظية : وهي ابدال لفظ بلفظ آخر يرادفه في المعنى مع الاحتفاظ بما للمبدل منه من الدلائل القريبة والبعيدة ، والدلائل الاصلية والتبعية ، وبما له من مميزات وموسيقى وخفة على الاسماع وتأثير في القلوب • وهذه الترجمة مما ليست في استطاعة احد كما اجمع على ذلك العلماء ، لان القرآن الكريم قد انزل قرآناً عربياً مبيناً معجزاً ولا تتسع أية لغة من اللغات لترجمته على هذا المنوال ، بل لا يمكن ان يعارض باللغة العربية نفسها : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » اذ القرآن الكريم له معان اصلية وهي ما يستوي في فهمه كل من عرف مدلولات الالفاظ المفردة فيمكن لكل انسان عالم بذلك المعنى ان يؤديه بأية عبارة كانت • وله معان ثانوية – ويسميها علماء البلاغة بمستتبعات التراكيب – وهي خواص النظم التي يرتفع بها شأن الكلام

كالايجاز والاطناب والكناية والمجاز والتقديم والتأخير الى غير ذلك • واذا كان للقرآن الكريم معان اصلية وأخرى تابعـة وهي مظهر بلاغته و مـلاك اعجازه ، فان ترجمته بالنظر الى المعاني الثانوية مستحيلة ، وحينئذ لا يمكن ترجمة القرآن ترجمة تؤدي المعاني التي بها الاعجاز ولاسيما البلاغة منه • وان اللغات الراقية وان كان لها بلاغة فان لكل لغة خواصها لا يشاركهـا غيرها فيهـا ، فالمترجم ان عول على نقـل ما في الاصل مـن الخواص فانـه لا تتأدى له البلاغة المطلوبة الا اذا تشاركت اللغتان في الخواص بعينها وهـذا غير حاصل ولا يمكن بحال من الاحوال ان يصل الى درجة الاعجاز مهمـا ارتقت درجته في البلاغة • واذا انتفى الاعجـاز عنـه بالترجمـة انتفت قرآنيته ، كما انتفى ان تقوم الترجمة مقام الاصل في الاحكام •

وقد تكون الترجمة تفسيرية : وهي الاتيان بما يفهم منه المعنى المشتمل عليه الكلام الاول وان لم يكن مستوفياً لكل ما يقصد منه ، وقيل هي التعبير عن كلام المفسرين بكلام آخر من لغة أخرى ، وهذه هي محل الجواز اذا اقتصرت الترجمة على التفسير وحده دون تناول كـلام الله تعالى • وهي كترجمة كتاب من كتب التفسير المعروفة أو كتفسير القرآن بلغة غير عربية • وهذه جديرة بان تسمى تفسير القرآن بغير لغته •

وقد اجمع العلماء على منع ترجمة القرآن لان ذلك غير ممكن قال ابن تيمية الحنبلي في الرسالة السبعينية : وأما الاتيان بلفظ يبين المعنى كبيـان لفظ القرآن فهذا غير ممكن أصلا ، ولهذا قال أئمة الدين : على انه لايجوز ان يقرأ بغير العربية لا مع القدرة ولا مع العجز عنها لان ذلك يخرجـه عن ان يكون هو القرآن المنزل •

وقال الامام الغزالي الشافعي في كتابه الجام العوام : لا يجوز النطق الا باللفظ الوارد ، لان من الالفاظ العربية مالا يوجد لها فارسية تطابقها ،

ومنها ما يوجد لها فارسية تطابقها لكن ما جرت عادة الفرس باستعارتها للمعاني التي جرت عادة العرب باستعارتها ، ومنها ما يكون مشتركا في العربية ولا يكون مشتركا في الفارسية •

وقال ابو بكر بن العربي المالكي في كتابه احكام القرآن في تفسير قوله تعالى « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي » قال علماؤنا – اي المالكية – هذا يبطل قول ابي حنيفة رضي الله عنه • ان ترجمة القرآن بابدال اللغة العربية منه بالفارسية جائز ، لان الله تعالى قال « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي » نفى ان يكون للعجمة اليه طريق ، فكيف يصرف الى ما نفى الله عنه ، ثم قال : ان التبيان والاعجاز انما يكون بلغة العرب ، فلو قلب الى غير هذا لما كان قرآناً ولا بياناً ولا اقتضى اعجازاً •

وقال الزركشي الشافعي في البحر المحيط : لا يجوز ترجمة القرآن بالفارسية ولا بغيرها بل تجب قراءته على الهيئة التي يتعلق بها الاعجاز لتقصير الترجمة عنه ولتقصير غيره من الالسن عن البيان الذي خص به دون سائر الالسن •

وجاء في المجموع للشافعية : أما الفاتحة وغيرها من القرآن فلا يجوز ترجمته بالعجمة بلا خلاف لانه يذهب الاعجاز : وقال : ومذهبنا – اي الشافعية – انه لا يجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب سواء امكنته العربية أم عجز عنها وسواء أكان في الصلاة أم في غيرها ، فان اتى بترجمته في صلاة بدلا عنها لا تصح صلاته سواء احسن القراءة أم لا ، وبه قال جماهير العلماء منهم مالك واحمد وداود •

وقال السيوطي الشافعي في الاتقان : لا تجوز قراءة القرآن بالمعنى لان جبريل أداه باللفظ ولم يبح له ايحاؤه بالمعنى •

وقال الدسوقي المالكي في حاشيته على شرح الدردير : لا يجوز قراءة القرآن بغير العربية بل لا يجوز التكبير في الصلاة بغيرها ولا بمرادفه من العربية فان عجز عن النطق بالتكبير بالعربية سقط عنه ، وان عجز عن النطق بالفاتحة بالعربية وجب عليه ان يأتم بمن يحسنها ، فان امكنه الائتمام ولم يأتم بطلت صلاته ، وان لم يجد اماماً سقطت عنه الفاتحة وذكر الله تعالى وسبحه بالعربية :

وقال الشيخ مخلوف المالكي في رسالته : ومذهب المالكية انه لا تجوز قراءة القرآن وكتابته بغير العربية .

وفي كشف القناع للحنابلة : فان لم يحسن قرآناً ولا آية حرم ترجمته أي تعبيره عنه بلغة أخرى ، لان الترجمة عنه تفسير لا قرآن ، ولا تصح الصلاة بقراءة تخرج عن مصحف عثمان .

وفي شرح المنتهى للحنابلة : ولا يترجم عن ذكر مستحب بغير العربية ولو عجز عنها لانه غير محتاج اليه فان فعل أي ترجم عن ذكر مستحب بطلت صلاته .

وفي الفتاوى الغياثية للحنفية : لو اعتاد القراءة بالفارسية أو أراد ان يكتب المصحف بها منع من ذلك أشد المنع لما فيه من الفتنة العظيمة .

وقال ابو بكر محمد بن الفضل البخاري الحنفي : من تعمد قراءة القرآن أو كتابته بالفارسية فهو مجنون أو زنديق والمجنون يداوى والزنديق يقتل .

وفي الاسرار على شرح المنار للحنفية : لو كتب مصحفاً بالفارسية أو واظب على القراءة بها يمنع منه . وينسب الى الزندقة أو الجنون .

وقال الزيلعي الحنفي في شرحه على الكنز : الصحيح ان القرآن هو

النظم والمعنى جميعاً عنده ـ أي ابي حنيفة ـ لانه معجزة للنبي (ص) والاعجاز وقع بهما جميعاً الا انه لم يجعل النظم ركناً لازماً في حق جواز الصلاة خاصة لانها ليست مجال الاعجاز : فقوله خاصة يدل على ان الخلاف انما هو في الصلاة فقط أما غيرها فلا خلاف ٠

وفي حواشي المنار للحنفية : اسقط ابو حنيفة فرض النظم في حق الصلاة خاصة رخصة في قول ، وروي رجوعه الى قولهما وعليه الاعتماد لانها ليست حالة اعجاز حتى لو كتب بالفارسية أو واظب على القراءة بها يمنع وينسب الى الزندقة والجنون ٠

وقال الشيخ محمد بخيت الحنفي مفتي الديار المصرية في رسالته ( حجة الله على خليقته ) : ان كانت الترجمة ابدال لفظ مكان لفظ من القرآن المنزل على نبينا محمد (ص) المنقول تواتراً لم يكن قرآناً بل هو تبديل للقرآن والتبديل لا يجوز بالاجماع لا كتابة ولا قراءة ولو كان بألفاظ عربية أو بخط غير خط المصحف العثماني ٠ ثم قال : واذا كان الاجماع منعقداً على منع الكتابة بغير الالفاظ العربية المنزلة ولو كانت الكتابة بالعربية بالفاظ أخرى فكتابته بأي لغة من اللغات غير العربية كالتركية مثلا أولى وأحق بالمنع ٠ ثم قال : وبذلك بطل تشديق الملحدين في هذا العصر من قولهم انه يجوز كتابة القرآن أو قراءته في غير الصلاة مطلقاً مع العجز بغير اللغة العربية التي بها نزل القرآن كالانكليزية أو التركية أو اللاتينية ونحو ذلك مما الحدوا به في هذا الزمن ٠ الى ان قال : ومن زعم ان كتابته بالعجمة فيها سهولة للتعليم فهو كذب مخالف للواقع والمشاهدة فلا يلتفت اليه ، ولو سلم صدقه لم يكن مبيحاً لاخراج الفاظ القرآن عما كتبت عليه وأجمع عليه السلف والخلف ٠

وقال الشيخ محمد شاكر وكيل الجامع الازهر في رسالته ( القول الفصل ) : فالحق الذي لا محيص عنه انه لا يحل الاقدام على ترجمة

القرآن الكريم الى غير العربية ، كما لا يحل الاقدام على تبديل أية كلمة من كلماته الشريفة بما يرادفها من العربية ولا على نقل أية كلمة أو آية من موضعها الى موضع آخر من آياته وسوره • وقال : هل نحن في حل من التعويل على الموازنة المعنوية في القرآن الكريم اذا نحن أردنا أن نغير عبارة بأخرى من نظمه الشريف من اللغة نفسها أم لسنا في حل من ذلك مهما بالغنا في المحافظة على تلك الموازنة المعنوية ، والواقع اننا لذا تتبعنا آراء المسلمين منذ بعث الله محمدا (ص) الى هذا العهد عهد التجدد والانتقال فأنا لا نجد من بين هؤلاء رجلا واحدا يتردد في جواب على هذا التساؤل بالسلب البات والتحريم القاطع • الى ان قال : ومتى كان هذا النوع من باب التعبير بعبارة أخرى من اللغة نفسها محظورا الى هذا الحد في القرآن الكريم باجماع المسلمين فأولى ثم أولى أن يكون محظورا أشد الحظر في باب التغيير الذي يتناول جميع الكلمات من نظمه الشريف في الترجمة من اللغة العربية الى غيرها من اللغات • ثم قال : فأنا لنعلن على رؤوس الاشهاد ان ترجمة القرآن الكريم الى الاعجمية حرام باجماع الفقهاء وأئمة الدين المجتهدين ، وان قراءة القرآن بغير اللغة العربية حرام باجماع الفقهاء وأئمة الدين المجتهدين ، وان تداول هذه التراجم في أقطار المعمورة بين من يحسن العربية ومن لا يحسنها حرام باجماع الفقهاء وأئمة الدين المجتهدين •

وقال العلامة زادة في شرح الجزرية : اذا لم يقرأ القرآن على الوجه الذي نزل به يكون مخالفا لله ولرسوله والمخالف لله ولرسوله عاص والعاصى آثم والآثم معاقب وكل ما يعاقب على فعله ويثاب على تركه حرام •

وجاء في صحيح ابن خزيمة ان رسول الله (ص) قال : ان الله يحب أن يقرأ القرآن كما انزل •

# حكم القراءة في الصلاة بغير العربية

وقد وقع خلاف بين الائمة في القراءة في الصلاة بالفاظ غير عربية يعبر بها عن طائفة من معاني القرآن الكريم ، فقد أجمع الائمة الثلاثة ـ الشافعي ومالك واحمد ـ على انه اذا قرأ المصلي بغير العربية سواء كان قادرا على القراءة بالعربية أو غير قادر فسدت صلاته لان المقروء ليس بقرآن لعدم اللفظ العربي كما انه من جنس كلام البشر لذلك تفسد صلاته •

قال السرخسي في كتابه المبسوط : وعند الشافعي لا تجوز القراءة بالفارسية بأي حال ، ودليله ان الفارسية غير القرآن والله تعالى يقول ( انا جعلناه قرآنا عربيا ) ، والواجب قراءة القرآن فلا يتأدى بغيره بالفارسية لان الفارسية من كلام الناس فتفسد صلاته •

وجاء في المغني للحنابلة : من كانت لغته غير العربية لم يجز له أن يقرأ بها ، ومن قرأ بغير العربية فلا صلاة له •

وقال النيسابوري : قال الشافعي ترجمة القرآن لا تكفي لصحة الصلاة في حق من يحسن القراءة بالعربية ولا في حق من لا يحسنها لانه عليه الصلاة والسلام والخلفاء من بعده وجميع الصحابة ما قرؤا في الصلاة الا هذا القرآن العربي فوجب علينا اتباعهم • وقال : وكيف يجوز عاقل قيام الترجمة بأي لغة كانت وهي كلام البشر مقام كلام خالق القوى والقدر •

وقال ابن المنذر : لا تجزى القراءة بالفارسية في الصلاة لانه خلاف ما أمر الله به وخلاف ما علّم النبي (ص) ( بمثل قوله : صلوا كما رأيتموني أصلي ) وخلاف جماعات المسلمين •

وفي المجموع للشافعية : ان مذهب الشافعية وجماهير العلماء منهم مالك واحمد وداود انه لا تجوز القراءة بغير لسان العرب مطلقا سواء أكان في الصلاة أم في غيرها ، وسواء أكان عاجزا عن العربية أم لا ، ولو قرأ الفاتحة بلغة لبعض العرب غير اللغة المقروء بها أو قرأ بترجمتها في صلاته لم تصح صلاته •

وقال ابن حزم في كتابه المحلى : من قرأ أم القرآن أو شيئا منها أو شيئا من القرآن في صلاته مترجما بغير العربية أو بألفاظ عربية غير الالفاظ التي انزل الله تعالى عامداً أو قدم كلمة أو أخرها عامداً لذلك بطلت صلاته وهو فاسق لان الله تعالى قال ( قرآنا عربيا ) وغير العربي ليس عربيا فليس قرآنا ، واحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله تعالى ، وقد ذم الله تعالى قوما فعلوا ذلك فقال ( يحرفون الكلم عن مواضعه ) ومن كان لايحسن العربية فليذكر الله تعالى بلغته لقول الله تعالى ( لا يكلف الله نفسا الا وسعها ) ولا يحل له أن يقرأ أم القرآن مترجما على انه الذي افترض عليه كما ذكرنا فيكون مفتريا على الله تعالى •

وفي العيني وفتح الباري عند شرح الحديث الشريف : اذا قمت الى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن • قال ابن عياض : في هذا الحديث حجة على من أجاز القراءة بالفارسية لكون ما ليس بلسان العرب لايسمى قرآنا •

وقال النووى في شرح مسلم : تحرم قراءة الفاتحة بالعجمة ولاتصح الصلاة بها سواء أعرف العربية أم لا •

وفي حاشية ترشيح المستفيدين : من جهل الفاتحة لايجوز له أن يترجم عنها لقوله تعالى ( انا انزلناه ، قرآنا عربيا ) والعجمي ليس كذلك وللتعبد بالفاظ القرآن •

وقد ذكر الحنفية ان أبا حنيفة (رض) كان يقول أولا : اذا قـرأ المصلي بغير العربية مع قدرته عليها اكتفى بتلك القراءة • ثم رجع عن ذلك وقال : من كان قادراً على العربية ففرضه قراءة النظم العربي ولو قـرأ بغيرها فسدت صلاته لخلوها عن القراءة مع قدرته عليها والاتيان بما هـو من جنس كلام الناس حيث لم يكن المقروء قرآنا • وذكر هذا الرجوع نوح بن أبى مريم وهو من أصحاب أبي حنيفة أخذ الفقه عنه ، وروى رجوع الامام أيضاً الجصاص وهو أمـام الحنفية في وقتـه • أما العاجـز فهو عندهم كالامي في انه لا قراءة عليه ، وان المؤدى بلغة أخرى ان كان قصة فسدت صلاته لانه متكلم بكلام غير قرآن وليس ذكرا ، وان كان ذكراً لاتفسد لان الذكر بأي لسان لايفسد الصلاة •

وقال صاحب البحر المحيط : والذين لم يطلعوا على الرجوع مـن أصحابه ـ أي أصحاب ابي حنيفة ـ قالوا أراد به عند الضرورة والعجز عن القرآن ، فان لم يكن كذلك امتنع وحكم بزندقة فاعلـــه ، وليس الالحاد ممن قدر أن يقرأ في الصلاة بالعربية فعدل عنها الى الاعجميـــة ببعيد •

ولنختم هذه الكلمة بملخص مقال للاستاذ الشيخ محمد سـليمان رحمه الله تعالى عنوانه ( ترجمة القرآن مضيعة له ) قال :

القرآن روح ، والروح لايترجم ، وانظر ان شئت الى صورة الحي ذي الروح ، هل تراها تتحرك أو تقوم مقامه أو تغنى غناءه ؟ قال تعالى : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهـــدى وبشرى للمؤمنين » وقـال « وكذلك أوحينـا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » • ولهذه الروحانية التي في القرآن عنها • قال تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتـابا متشـابها مثاني تقشـعر منـه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلــك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد » •

والقرآن نور ، والنور لايترجم ، واملأ الليل بما شئت من أنوار الكهرباء فهي لا تغني عن نور النهار ، ولا تقوم مقام الشمس ، ولا تؤدي وظيفة الشمس ، ففوق ما في الشمس من ضياء فيها الحرارة التي يكون بها النماء ، وفي الحرارة سر الحياة وسحر السر ، وهذه آيات نوره • قال تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نوراً مبيناً » وقال : « ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا » ، فهذا النور الذي أنزله الله على محمد هو الذي بعثه ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، أي الى القرآن وهداية القرآن •

القرآن عربي وسره في عربيته ، وأبى الله الا أن يكون عربياً وان يسمع بنظمه العربي ، وأن يؤثر بتلاوته العربية ، ويتذكر به السامع ، ويصحو على جرسه الغافل • قال تعالى : « انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » وقال « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون » •

ولم تقتصر آيات القرآن على عربيته ، وتأثيره بعربيته ، وارادة صاحبه أن يمضي بأثره في العالم عربياً ، وانما رفض أيضا أن يكون أعجمياً ، أو ينزله أعجمياً ، أو يبدله أعجمياً ، فقال « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين » وقال « ولو أنزلناه على بعض الاعجميين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » وقال « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لو لا فصلت آياته أأعجمي وعربي ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد » • وقد رفض في قدرة ، وأبى عن حكمة أن تبدل كلماته ، وأن يطاع أكثر من في الارض بتبديلها كما يظن الظانون في أمر ترجمته فقال « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » •

# القصص في القرآن

اشتمل القرآن الحكيم على جملة من القصص المتعلقة بالتاريخ الماضي من أخبار الامم والاقوام السالفة ، وبعض ما جرى للرسول من الوقائع في مكة والمدينة وذلك عبرة وذكرى وشفاء لما في الصدور من الزيغ والضلال ، وارشاد الناس الى أحكام الله لتقويم البشر وتهذيب نفوسهم واصلاح معادهم ومعاشهم •

وقد وردت بعض تلك القصص مكررة ومجمنة مفصلة بأساليب متغايرة أو صور متقاربة ، ولكل منها مغزى لا يؤديه غيره ومرمى لايصيبه سواه •

وانما جاءت تلك القصص في القرآن الكريم لحكم كثيرة منها :

١ ـ ان هذه القصص حجة قاطعة على نبوة سيدنا محمد (ص) وانه لاينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى حيث أخبر عما جرى للامم الماضية من الحوادث والوقائع مع انه أمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يخالط أحدا من الذين يعلمون عن تلك القصص شيئاً • قال تعالى « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فأصبر ان العاقبة للمتقين » •

٢ ـ تثبيت فؤاد النبي (ص) وتسليته بما جرى لاخوانه من الانبياء والمرسلين ، وتبشيرة بالعاقبة تسكيناً لباله ، فلا يبالي بما قاساه من اضطهاد قومه له ، فذكره بما أصاب الانبياء والمرسلين قبله من اضطهاد وايذاء وسخرية وبما لحقهم من قتل وتشريد وهجرة • قال تعالى « قد نعلم انه ليحزنك الذين لا يقولون فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون • ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا

حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ، وقد بين له تعالى في كثير من الآيات ان العاقبة له وان الانتصار حليفه في معرض تلك القصص .

٣ - اتعاظ الامة واعتبارها باحوال الامم الماضية وما كانت عليه من ضعف وقوة وتصديق وتكذيب وجد وكسل ، وما أصابها بسبب ذلك من ذل وعز وسيادة وعبودية ورفاه وضنك ليتدبر المسلمون ذلك كله وليعلموا ان تلك الامم لم تنزل بها المصائب والاهوال ولم تذل وتخضع لغيرها الا لانحرافها عن الصراط السوي وانحدارها الى حضيض الشهوات وعصيانها اوامر الله ورسله . قال تعالى بعد ذكر الذي آتاه الله آياته فانسلخ عنها « ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » وقوله تعالى « وظنوا انهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار » .

وليعلم المسلمون ايضاً ان الامم لا تستحق السيادة والاستخلاف في الارض الا اذا كانت صالحة عاملة عالمة عادلة سخية مستبسلة مضحية في سبيل دينها وبلادها بالنفس والمال ، وان نصر الامة وانقاذها من مخالب الامم القوية لا يكون الا بالايمان الكامل ، واتقاء اسباب الخذلان من تفرق وتنازع وتخاذل وقنوط « وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا انالارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » .

وبين تعالى ان اسباب هلاك الامم هو ظلمها : « وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا » .

وبين تعالى ان انتشار المعاصي والشهوات والترف وانكار آيات الله سبب الهلاك والدمار « أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة

الذين كانوا من قبلهم كانـوا هم أشـد منهم قوة وآثاراً في الارض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق » .

وبين تعالى انه يبتلي الامم بالبأساء والضراء وبالسراء والرخاء ليكون ذلك درساً من دروس التربية الاجتماعية وحافزاً لطرق سبل الخير والفلاح: « وما ارسلنا في قرية من نبي الا اخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون. ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فاخذناهم بغتة وهم لا يشعرون » .

٤ ـ معرفة النظام التشريعي وتطوره ، وان قسما من النظم التي كانت مشروعة للامم الماضية قد جعلها الله تعالى شرعاً لنا مثل القصاص فانـه ورد في شريعة موسى عليه السلام « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص » وقد أقره الله تعالى في الشرع الاسلامي وجعله نظاماً من انظمته القضائية .

وكذا تحريم القتل فـانه كان محرماً في شـريعة آدم عليه السلام : « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقـين لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لاقتلك اني اخاف الله رب العالمين » .

وقد ذكر القرآن بعض ما كان من نظام الامم الماضية وجاء ناسخاً لها مثل قوله تعالى « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما الا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم » فان هذا قد كان محرماً في شريعة موسى عليه السلام . وكذا ما كان من سنة آل يعقوب في حكم السارق وهو شريعة ابراهيم عليه السلام ان يسلم السارق الى المسروق منه فيسترقه سنة وذلك كقول اخوة يوسف : « جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه » .

٥ - معرفة ما ابتدعه البشر من الانظمة مما لم يأذن به الله ، كجعل المشركين نصيباً من زروعهم وانعامهم لله تعالى ونصيباً آخر لأوثانهم ، فما كان لله صرفوه الى ضيوفهم وفقرائهم ، وما كان لأصنامهم انفقوه عليها ، كما انهم كانوا يقتلون اولادهم من املاق وغير ذلك مما اخترعوه ، ويحرمون نساءهم مما احله الله لهن ويجعلونه للرجال دونهن . قال تعالى « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل اولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون . وقالوا هذه انعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وانعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على ازواجنا وان يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم » .

٦ - معرفة صفات الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وما طبعت عليه من مكارم الاخلاق ومسالكهم في اقناع أممهم وطرق جدالهم ، وتفنيد شبه الاعداء والمعاندين وما ارتكبته تلك الامم من الجنايات والاعتداء على تعاليم اولئك الانبياء والرسل ، وكيف انهم مسخوا الكتب السماوية وادخلوا عليها التحريف والحذف والزيادة بحسب شهواتهم واهوائهم وميولهم .

هذا قبس من نور تلك القصص القرآنية وما اشتملت عليه من عبر وعظات ليتدبرها المسلمون ، ولو اردنا استقصاء ما انطوت عليه تلك القصص من مواعظ وارشادات لاحتجنا الى شيء كثير من الصفحات بل المجلدات .

وللاديب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد مقالة عنوانها « القصة في القرآن الكريم » يقول فيها :

القصص في اللغة هو تتبع الاثر لمعرفة المكان الذي نزل به أصحابه أو سلكوه •

ومن هنا قيل للحكاية عن القوم انها قصة ، لان من يحكي عنهم يتتبع اثرهم ليعرف خبرهم ، فهو يقص سيرهم في الزمان كما تقص السير في المواقع والجهات •

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بالمعنيين في سورة واحدة • فجاء في سورة الكهف « فارتدا على آثارهما قصصا » بمعنى تتبع الاثر لمعرفة الطريق ، وجاء فيها « نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » بمعنى تتبع الخبر في التاريخ •

ولكن كلمة القصص في القرآن الكريم تنصرف على عمومها الى معنى الهداية الى الاخبار والآثار الباقية من سير القرون الغابرة ، وهي تساق في الكتاب لمقاصد كثيرة تجمعها كلها هذه المقاصد الثلاثة :

فهي تساق للعبرة والموعظة ، أو تساق للقدوة وتثبيت العزيمة ، أو تساق للتعليم والهداية •

وتتلى قصص العبرة والموعظة في القرآن الكريم لتذكير الاحياء بمصاير الغابرين من الامم الاولى ، وكانت توصف بأنها أساطير الاولين ، من الكلام المسطور أي المكتوب ، وقد تكون الكلمة احدى الالفاظ التي تعربت عن اليونانية لان « الاستوريا » عندهم بمعنى الخبر المسجل ، أو المعروف ، ولايبعد أن يكون اليونان قد أخذوها عن العرب ، لانهم أخذوا الكتابة عن الامم السامية ، وسبقهم عرب الشمال وعرب الجنوب الى رسم الحروف ، ولا تزال أسماء « الالفا ، والبليتا ، والجما » عندهم منقولة

---

(١) هذا نص المقالة كاملا ، وقد نشرت في مجلة منبر الاسلام •

من الألف ، والباء والجيم ، بل يرجح ان كلمة « كلموس » اليونانية أي « القلم » منقولة عن العربية لان القلامة أصيلة فيها ، ومن مادتها الفصم والقضم والقطم والقحم والقرم ، وكلها تفيد القطع كما يفيده التقليم وكذلك السطر والشطر بمعنى الخط أو القط في العربية • ويقال : سطره ، وشطره ، وخطه وقطه بمعنى واحد ، فليس من البعيد أن تنتقل هذه الكلمات مصاحبة للكتابة التي لاشك في انتقالها من الامم السامية الى اليونان •

وقد ترددت في القرآن الكريم اخبار الاولين على سبيل العبرة والموعظة ، وكان مدارها جميعا على تحذير الامم الباقية من الاغترار بالمتعة كما اغترت بها الامم الخالية ، وكانت هذه العظات ألزم العبر لتلك الامم التي آمنت بالاوثان والارباب ، ولم تؤمن بالوحدانية ، فانها اذا علمت ان أربابها لا تحميها من الكوارث ، ولا تقدر على اصابتها بها ذهب ايمانها تلك الارباب ووجب عليها أن تبحث عن قوة آلهية تملك تلك القدرة التي عجزت عنها معبوداتها •

وفي القرآن غير القصص التي تدعو الى العبرة بمصير الامم ـ أنباء تروى عن الانبياء الذين أرسلوا الى الامم الغابرة فكذبتهم وتنكرت لهم ، ثم ظهرت دعوتهم ، وحاقت النقمة بمن كذبوهم وأنكروهم ، وبقيت قدوتهم ، لينتفع بها من يعمل عملهم ويقفو أثرهم ، ويلقى من قومه مثل ما كانوا يلقونه من أقوامهم ••• « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » كما جاء في سورة « هود » •

وهذه ـ على الجملة ـ حكمة القصص التي جاءت في الكتاب عن جهاد الرسل ، وعاقبة الصبر على الدعوة ، تثبيتا للافئدة ، وتبشيرا للدعاة والمصلحين بعاقبة الصبر على الجهاد •

ومن قصص التعليم والهداية - في القرآن - قصة موسى والخضر عليهما السلام ، يرى بعض المفسرين أنها درس لاصحاب الشرائع يفرقون به بين شريعة الظاهر وشريعة الباطن كأنهما على اختلاف ، كما اعتقد أناس من القائلين بالاسرار والاشارات الخفية ، ويرى الثقات ان القصة درس لاصحاب الشرائع حقا ، ولكنهم يفهمون من هذا الدرس ان سعة العلم من شروط القضاء بين الناس ، وأن العدل منوط بمقدار ما يعلمه الحاكم من شئونهم ، وحقائق أموالهم ، واسباب مصالحهم فلا يتساوى يعرف تلك الاحوال على حقائقها ، وآخر ينظر فيها بما يبدو له من ظاهرها وذلك درس لا غنى عنه لمن يقضي بشريعة من الشرائع تجري على قسطاس واحد ، ولا يختلف فيها ظاهر وباطن كما يعتقد القائلون بالاسرار والاشارات الخفية ، فلا حاجة بالقاص العادل الى غير العلم بحقيقة القضية التي بين يديه ، ثم لا يختلف فيها بعد ذلك قولان •

ومن الواجب أن نذكر ان قصص القرآن جميعا تساعد للموعظة والتعليم وحسن القدوة ، وانها تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سياق أو مقصد يعني به الدين ، فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين ، وليست حكمتها موقوفة على شيء غير ما فيه الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها الناس •

ولكن الجانب التاريخي المحض من القصص الديني قد كان له درسه النافع للمتعجلين من أدعياء « التحقيق العلمي » منذ أوائل القرن التاسع عشر ، لعلهم لا يستغنون عنه بعد انتصاف القرن العشرين • فقد كان ورود الخبر في كتاب من كتب الدين كافياً عندهم للجزم باختلافه ، وحسبانه في عداد الخرافات أو في عداد الخيالات الشعرية التي لم تحدث قط في غير أوهام الشعر أو الشعراء ، فلم تمض سنوات على الشروع في

حركات البحوث الحفرية حتى ثبتت علامات الصبغة التاريخية لكل خبر من أخبار تلك الحوادث المشكوك فيها ، وثبت ان علماء التاريخ كانوا خلقاء أن يجهلوا كل شيء عن تلك الحوادث لو لم يعلموا بها من مصادرها الدينية ، قبل أن يتوفروا على حركة الحفر والتنقيب في آثار الشرق الادنى وما جاور بلاد النهرين .

ومن هذه الاخبار ما كانوا يقرأونه في الكتب ويمرون به على غير انتباه ، لانهم لم يعرفوا له خطرا جديرا بالاهتمام في غير المصادر الدينية ، فشكوا من وجود عاد وثمود ، وشكوا في حملة الفيل وهلاك أُصحاب الفيل وشكوا في الزلازل والاعاصير والطوفانات والجوائح والحروب التي سيقت مساق العبرة في قصص القرآن ، وانفرد بها أحيانا بين كتب الاديان ، فلما حققوا الآثار ، وصححوا المراجعة - تبين لهم ان عادا وثمود من أخبار بطليموس ، وان هلاك أصحاب الفيل من تواريخ الحبش والروم ، وان المدن التي ساخت بها الارض ، أو عصفت بها الرياح - حقيقة لا تقل في صدقها عن حقائق طيبة ومنف وطروادة ومسعيني ، وان بقايا اللغة تقول لنا اليوم - بعد المقارنة بين اللغات - كل ما كذبوه من الاصول ، أو من الصلات بين شعوب الامس وأعراقه في أحاديث المتدينين ، وأنهم هم في انكارهم وتحقيقهم المزعوم قد أبدعوا لهذا العصر صورة جديدة من صور الخرافة لم تكن مقبولة عند المخرفين الاقدمين ، وهي خرافة العالم الذى ينكر ما يجهل ، ويجهل ما ينكر ، ويظن ان كلمة « التحقيق » وحدها سلطة - تخولهم - دون غيرهم - حق الاستئثار بالرفض والانكار .

واذا أنكر هؤلاء المتعجلون كل شيء في الدين فلعلهم لا يستطيعون أن ينكروا اليوم هذا الدرس الذى تعلموه من كتب الدين فقد تعلموا - على غير قصد منهم - أن التعجل بالانكار جهل شائن كجهل المتعجلين بالتصديق.

# الامثال في القرآن

المثل في اللغة بمعنى المثل والمثيل كشبه وشبيه وهو النظير ، ويجمع مثل على أمثال • قال اليزيدي : الامثال الاشباه ، واصل المثل الوصف هذا مثل كذا أي وصفه مساو لوصف الآخر بوجه من الوجوه • والمثل : القول السائر الذى فيه غرابة من بعض الوجوه والذي يمثل مضربه بمورده وحيث لم يكن ذلك قولا بديعا فيه غرابة صيرته جديرا بالتسيير في البلاد وخليقا بالقبول فيما بين كل حاضر وباد ، استعير لكل حال أو صفة أو قصة لها شأن عجيب وخطر غريب من غير ان يلاحظ بينها وبين شيء آخر تشبيه • وقيل المثل : ذكر وصف ظاهر محسوس وغير محسوس يستدل به على وصف مشابه له من بعض الوجوه فيه نوع الخفاء ليصير في الذهن مساويا للاول في الظهور من وجه دون وجه • والمقصود من ذكر المثل انه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ، لان الغرض من ضرب المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد فيتأكد الوقوف على ما هيته ويصير الحس مطابقا للعقل • ويضرب المثل لابراز خبيئات المعاني ورفع الاستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب في صورة المشاهد وفيه تبكيت للخصم الألد وقمع لسورة الجامح الابي ، ولأمر ما أكثر الله تعالى في كتابه المبين وفي سائر كتبه من ضرب الامثال لان التمثيل الطف ذريعة الى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه ، وأقوى وسيلة الى تفهم الجاهل الغبي ، وقمع سورة الجامح الشامس لانه يرفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية ويبرزها في معرض المحسنات الجلية ، وهو ابداء للمنكر في صورة المعروف واظهار للحوشي في هيئة المألوف • ولما كان المراد بالمثل بيان الاحوال كان قصة وحكاية • واختير له لفظ الضرب لانه يأتي عند ارادة

التأثير وهيج الانفعال كأن ضارب المثل يقرع به اذن السامع قرعاً ينفذ الى قلبه وينتهي الى أعماق نفسه •

قال الشيخ محمد الخضر حسين :

يصور المثل الحقائق في أجلى صورة ، ويريك المعـــاني الكثيرة في الكلمات القليلة ، فاذا اردت أن تصف رجلا بالدهاء وجودة الرأي ، والاخذ في تدبير الامور بانجح الطرق ، ورمت أن تعبر عن هذا المعنى بلفظ موجز ينقشـه في نفس المخاطب حتى كأن يراه رأي العين ، ضربت فيه المثـــل : « يعرف من أين تؤكل الكتف »

واذا سمعت كلاماً كثيراً لا تجني منه فائدة ، وأردت أن تصفه بكلمة يخف وقعها في الاذن وتضع ذلك المعنى موضع المشاهد ، ضربت فيه المثل : « أسمع جعجعة ولا أرى طحناً »

يحسن ضرب المثل حيث يكون سـبب وروده معروفاً للمخاطبين • وكثير من الامثال لا يفهم منها معنى وان كانت الفاظها واضحة الدلالـة على معانيها المفردة ، فالمثل : « ان يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر » مفرداته واضحة المعاني ، وليس في تركيبـه حذف ، ولا لفظ يتوقف فهمه عـلى كلام يسـبقه أو يأتي من بعـده ، ولو سـقته في الحديث مع من لا يعرف مورده لم تصل به الى الغرض الذى تستعمل من أجله الامثال ، وهو ابراز المعنى في صورة مألوفة تتلقاها النفوس بارتياح وانما يفي هذا المثل بالغرض ، ويقع المعنى المقصود في نفس المخاطب موضع الجلي الواضح متى عـرف « ان بني ثعلبة ابن سعد بن ضبة في الجاهلية تراهنو على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة من الشهر ، فقالت طائفة : تطلع الشمس والقمر يرى ، وقالت طائفة : يغيب القمر قبل أن تطلع الشمس ، فتراضوا برجل جعلوه

حكما ، فقال واحد منهم : ان قومي يبغون علي ، فقال الحكم : « ان يبغ عليك فومك لا يبغ عليك القمر » •

قد يستعمل المثل على وجه الاستعارة ، كضربك المثل « الصيف ضيعت اللبن » في حق من كان متمكناً من أمر فأضاعه من يده ، ثم جاء يطلبه بعد فواته ، فانك شبهت حال هذا الرجل بمورد المثل ، وهو حال المرأة التي كانت تحت شيخ موسر فسألته الطلاق فطلقها زمن الصيف ، فتزوجت شاباً فقيراً ، فلما دخل الشتاء ارسلت الى الشيخ تستقيه لبناً ، فقال لها « الصيف ضيعت اللبن » واستعرت هذا المثل الى حال الرجل الذي أضاع أمراً كان طوع يده ، ثم رغب في مناله • واستعمال الامثال على هذا الوجه هو الذى تحدث عنه البيانيون فقالوا : متى فشا استعمال المجاز المركب سمي « مثلا » •

وقد يستعمل المثل على وجه التشبيه الصريح ، كأن تذكر شخصا تريد أن تصفه بأنه يشتهي قربه ، ويخاف شره فتقول : هو « كالخمر يشتهي شربها ، ويخاف صداعها » •

وقد يستعمل على وجه الحقيقة المحضة ، كأن ترى شخصاً اعتبر في بعض الامور بما وقع فيه غيره من عاقبة مكروهة فأخذ حذره من ذلك الامر ، فتقول : « السعيد من اتعظ بغيره » فليس في ضرب هذا المثل استعارة ولا تشبيه •

يلزم في المثل أن يكون قولا موجزاً شائعاً ، وقد يكون حكمة ، أي كلاماً ينهي عن سفه ، أو يدعو الى خير ، نحو : « ان المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً ابقى » ، وهو مثل يضرب لمن يجهد نفسه في طلب الشيء ، ويبالغ في الطلب حتى انه ربما يدركه التعب أو الملل ، فينقطع دون البلوغ الى الغاية •

وقد يكون خالياً من الحكمة بالمعنى المشار اليه ، ولكنه يدل على معنى مقبول ، كالامثال الصالحة للاعتذار ، نحو : « مكره أخاك لا بطل ».

والحكمة التي تؤدي ما يؤديه المثل الا انها لم تشع في الجمهور ، ولم تجر الا بين الخواص ، يسميها بعض الادباء بالنادرة .

ومن الامثال ما يكون كلاماً مستقلا بنفسه ، نحو : « حبك الشيء يعمي ويصم » ونحو : « رب أخ لك لم تلده امك » . وقد يكون مقتطعاً من كلام ، نحو : « ان المقدرة تذهب الحفيظة » قال أبو عبيد : بلغنا هذا المثل عن رجل عظيم من قريش في سالف الدهر كان يطلب رجلا بثأر فلما ظفر به قال : لو لا ان المقدرة تذهب الحفيظة لانتقمت منك ثم تركه. والى هذين الضربين من الامثال اشار المرزوقي في كتاب الفصيح فقال : المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول .

قال الجرجاني في كتابه ( اسرار البلاغة ) :

واعلم ان مما اتفق العقلاء عليه ان التمثيل اذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الاصلية الى صورته ، كساها ابهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من اقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب اليها ، واستثار لها من اقاصي الافئدة صبابة وكلفاً ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغافاً فان كان مدحاً كان أبهى وافخم ، وانبل في النفوس واعظم ، وأهز للعطف ، وأسرع للالف ، واجلب للفرح ، واغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح ، واقضى له بغرور المواهب والمنائح ، وأسير على الالسن واذكر ، وأولى بان تعلقه القلوب واجدر ، وان كان ذماً كان مسه اوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده احد ، وان كان حجاجاً كان برهانه

أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر ، وان كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد ، وان كان اعتذاراً كان الى القبـــول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل ، ولغرب الغضب أفل ، وفي عقد العقود أنفث وعلى حسن الرجوع أبعث ، وان كان وعظاً كان أشفى للصــدر ، وادعى الى الفكر ، وابلغ في التنبيه والزجر ، واجدر بان يجلي الغيابـة ، ويبصر الغاية ، ويبريء العليل ، ويشفي الغليل • الخ

وان الامثال التي وردت في القرآن الكريم ترمي الى مغازي ومرامي كثيرة ، منها : التذكير ، والوعظ ، والحث والزجر والاعتبار والتقريــر والتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس والمدح ، والــذم والثواب والعقاب ، وتفخيم الامر وتحقيره ، وتحقيق امر وابطالــه ، قال (ص) : ان القرآن نزل على خمسة اوجه حلال وحرام ومحكم ومتشابه وامثال ، فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالامثال •

قال الماوردي : من اعظم علم القرآن علم امثاله والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالامثال واغفالهم الممثلات والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجـام والناقة بلا زمام •

وقال السيوطي في اتقانه ما ملخصه : امثال القرآن قســمان ظاهر مصرح به ، وكامن لا ذكر للمثل فيه • فمن أمثلة الاول قوله تعالى « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً • الآيات » ضرب فيها للمنافقين مثلين ، مثـــلا بالنار ، ومثلا بالمطر قال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للمنافقين كانــوا يعتزون بالاسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء فلمـا ماتوا سلبهم الله العز كما سلب صاحب النار ضوءه وتركهم في ظلمـات ، يقول في عذاب ، أو كصيب هو المطر ضرب مثله في القرآن فيه ظلمات يقول

ابتلاء ورعد وبرق وتخويف ، يكاد البرق يخطف أبصارهم ، يقول يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، يقول كلما أصاب المنافقون في الاسلام عزاً اطمأنوا فان أصاب الاسلام نكبة قاموا فأبوا ليرجعوا الى الكفر . كقوله تعالى « ومن الناس من يعبد الله على حرف . الآية » ومنها قوله تعالى « انزل من السماء ماء فقالت أودية بقدرها . الآية » قال ابن عباس : هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الزبد فيذهب جفاء وهو الشك وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض وهو اليقين كما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار كذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك ، وقال قتادة : ومنها قوله تعالى : « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا » قال ابن عباس هذا مثل ضربه الله للمؤمن يقول هو طيب وعمله طيب ، كما ان البلد الطيب ثمره طيب . والذي خبث ضرب مثلا للكافر كالبلد السبخة المالحة ، والكافر هو الخبيث وعمله خبيث

ومنها قوله تعالى « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل واعناب » قال ابن عباس : ضربت لرجل غني عمل بطاعة الله ثم بعث الله له شيطانا فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله .

وأما الامثلة الكامنة التي لا ذكر للمثل فيها : فقد سأل مضارب بن ابراهيم الحسن بن الفضل بقوله : انك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن فهل تجد في كتاب الله ( خير الامور أوساطها ) قال نعم في اربعة مواضع قوله تعالى « لا فارض ولابكر عوان بين ذلك » وقوله تعالى«والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ) وقوله تعالى ( ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ) وقوله تعالى ( ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ) .

وسأله هل تجد في كتاب الله « من جهل شيئاً عاداه » قال نعم في موضعين « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه » « واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم » .

وسأله عن « أحذر شر من احسنت اليه » فقال « وما نقموا الا ان أغناهم الله ورسوله من فضله » وعن « ليس الخبر كالعيان » فقال « أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » وعن « في الحركات بركات » فقال « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الارض مراغما كثيراً وسعة » وعن كما تدين تدان » فقال « من يعمل سوء يجز به » وعن « حين تبلي تدري» فقال « وسوف يعلمون حين يرون العذاب من اضل سبيلا » وعن « لايلدغ المؤمن من جحر مرتين » فقال ( هل آمنكم عليه الا كما امنتكم على أخيه من قبل ) وعن ( من أعان ظالماً سلطه الله عليه ) كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير ) وعن ( لا تلد الحية الا حية ) فقال ( ولا يلدوا الا فاجراً كفارا ) وعن ( للحيطان آذان ) فقال ( وفيكم سماعون لهم ) وعن ( الجاهل مرزوق والعالم محروم ) فقال ( من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ) وعن ( الحلال لا يأتيك الا قوتاً والحرام لا يأتيك الا جزافا ) فقال ( اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ) .

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم جارية مجرى المثل . مثل قوله تعالى ( ليس لها من دون الله كاشفة ) و ( لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ) و ( الآن حصحص الحق ) و ( وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ) و ( ذلك بما قدمت يداك ) و ( قضي الامر الذي فيه تستفيان ) و ( أليس الصبح بقريب ) و ( حيل بينهم وبين ما يشتهون ) و ( لكل نبأ مستقر ) و ( ولا يحيق المكر السيء الا بأهله ) و ( قل كل يعمل على شاكلته ) و

( وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ) و ( كل نفس بما كسبت رهينة ) و ( وما على الرسول الا البلاغ ) و ( ما على المحسنين من سبيل ) و ( هل جزاء الاحسان الا الاحسان ) و ( كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ) و ( الآن وقد عصيت قبل ) و ( وتحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ) و ( ولا ينبئك مثل خبير ) و ( كل حزب بما لديهم فرحون ) و ( ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم ) و ( وقليل من عبادي الشكور ) و ( لايكلف الله نفساً الا وسعها ) و ( لا يستوي الخبيث والطيب ) و ( ظهر الفساد في البر والبحر ) و ( ضعف الطالب والمطلوب ) و ( لمثل هذا فليعمل العاملون ) و ( قليل ما هم ) و ( فاعتبروا يا أولي الابصار )

---

## فواتح السور

كثرت أقوال العلماء وتعددت آراؤهم في فواتح السور ، وذلك لانه لم يرد عن النبي (ص) ذكر معناها ، وقد كان علماء السلف يفوضون أمرها الى الله تعالى ويجعلونها من قبيل المتشابه الذى استأثر الله جل جلاله بعلمه .

ولكن علماء التفسير واللغة قد ذكروا لها معاني وعللا كثير نأتي على اشهرها :

قال أبو علي محمد بن المستنير النحوي المشهور بقطرب : كان العرب ينفرون عند استماع القرآن ، فلما نزلت « آلم اكمص » استنكروا هذا اللفظ وتاقت نفوسهم الى تعرف ما يتلوه من الكلام وتفهم ما ضمنه من المعاني والاغراض فلما انصتوا أقبل عليهم النبي بالقرآن المؤتلف ليثبته في اسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم اه . فعلى هذا يكون القرآن جاء

بهذه الالفاظ ليستدرج العرب استدراجاً حتى يقبلوا عليه ويستمعوا له ، والمتتبع لاساليب كلام العرب يجد انهم قد يأتون بالحرف أو الاحرف لا لغرض سوى هذا التنبيه ، وأكثر ما يستعمل هذا في مخاطبـــة الغافلين أو الجاهلين المعرضين ، ومن هذا استعمال ( ها ) للتنبيه ، و ( ها ) في ايها ، و ( ما ) الزائدة في نحو ( فبما رحمة من الله لنت لهم ) ، فاذا سمع انسان هذه الحروف ولم يفقه لها معنى توجهت نفسه الى تعرف ما بعدها لعلـــه يجد فيه ما يدله على ما اريد منها ، ومن هنا ينصرف بجميع قلبه الى ما يتلوها لعله يهتدي بشيء من هديه ، ولولا ذلك لاعرض عنه ونأى بجانبه ، ولما كان لشيء من آياته سلطان على قلبه ولا اثر في نفسه •

وقيل ان الله تعالى قد اقسم بهذه الحروف لعظمة شأنها وشرف مكانها ، لانها أبسط عناصر الكلام ، وهو اجلى واسطة للتفاهم ، ثم هي أبسط عناصر الكتابة ، وهذه أقوى اداة يستعين بها الانسان في حياته العلمية والعملية ، والكلام والكتابة هما من أرقى ما يمتاز به النوع البشري • ومن هنـــا يتضح ان القسم بهذه الحروف بمثـابة القسم بأهم عناصر العلم ، وشرفهـا معقود بشرف ما يتركب منها ، وما تقوم بـه من الوظـائف ذات الشأن • وقد اقسم الله تعالى بالكتابة واخص ادواتها فقال : ( ن والقلم وما يسطرون ) وهل يسطرون الا الحروف الدالة على المعاني ، ومما يشير الى صحة هذا انه لم تفتتح سورة بشيء من هذه الحروف الا جاء بعدها ذكر الكتـاب أو ما يشير اليه أو ما يتعلق به ، فقد جاء في القرآن الكريم تسع وعشـــرون سورة مفتتحة بهذه الحروف ، ثلاث منها غير مردوفة بذكر الكتاب أو ما يتعلق به وهي : ( مريم • والعنكبوت • والروم ) والست والعشـــرون الباقية كلها مردوفة به أو بما يشـير اليه ، كمـا تراه في مفتتح ( آلم ذلك الكتاب • آلم الله لا اله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق •

آلمص كتاب انزل اليك • الر تلك آيات الكتاب • طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى • طسم تلك آيات الكتاب • يس والقرآن الحكيم • ص والقرآن ذي الذكر • حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم • ق والقرآن المجيد ) وكذا البواقي ، ولاشك في ان الجمع بين هذه الحروف والكتاب العزيز انما هو جمع بين ابسط عناصر القول واعلى مرتبة من مراتبه ، فهو جمع بين طرفي البداية والنهاية ، وفي هذا مافيه من تعظيم العلم بتعظيم آلته ، ثم ان في ذلك تنبيها الى ان القرآن ليس الا من هذه الحروف التي يتركب منها كلام العرب فعجزهم عن مساواته والاتيان بمثله بل بسورة من مثله دليل على كونه من عند الله لا من عند البشر •

ثم ان من يستقري الحروف التي وردت في الفواتح تشير الى طريقة تعليمية بديعة ، وذلك انها نصف حروف المعجم التي اذا تعلم المرء كتابتها يصبح كأنه قد تعلم كتابة حروف المعجم بأجمعها ، فمن عرف كتابة الصاد مثلا فقد عرف كتابة الضاد ، ومن عرف كتابة الطاء فقد عرف كتابة الظاء ، ومن عرف كتابة الحاء فقد عرف كتابة الجيم والخاء وقس على ذلك غيره •

ثم ان هذه الحروف الاربعة عشر انصاف انواع الحروف المهموسة ففيها نصف المهموسة ( ص • ك • هـ • س • ح ) ، ونصف المجهورة ( ا • ل م • ر • ع • ط • ق • ي • ن ) ، ونصف الشديدة ( ا•ك• ط • ق ، ) ونصف الرخوة ( ل • م • ر • ص • هـ • ع • س • ح • ن • ي ) ، ونصف المطبقة ( ص • ط ) ، ونصف المنفتحة ( ا•ل• م • ر • ك • هـ • ع • س • ح • ق • ن • ي • ) ، ونصف المستعلية ( ق ص ط ) ، ونصف المنخفضة ( ا • ل • م • ر • ك • هـ• ع • س • ح • ن • ي • ) ، ونصف القلقلة ( ق • ) • فيظهر من هذا ان من اتقن النطق بهذه الحروف معطياً كل حرف ما يستحقه من هذه

الصفات فقد اتقن النصف الآخر الذي لم يرد في الفواتح ، فكأن الله تعالى اشار بهذا الى وضع اسلوب علمي مبتكر لتسهيل تعليم الكتابة والقراءة وتقريبهما من متناول الاميين ، وفي هذا ما فيه من الفوائد ولاسيما بعد ان علمنا ان القرآن نزل بين ظهراني امة امية ، وهل تعالج ادواء الامية بأنجع من أمثال هذا الاسلوب التعليمي البديع •

قال الاستاذ الشيخ ابراهيم الجبالي في تفسير سورة لقمان عند قوله تعالى « ألم • تلك آيات الكتاب الحكيم » هذه اسماء للحروف التي تتركب منها الكلمات ، وقد اختلف المفسرون في المراد منها في فواتح السور ، فقيل هي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه • وروي عن ابي بكر الصديق (رضي) انه قال : لكل كتاب سر وسر القرآن أوائل السور • والحكمة في بدء السور بها وان لم يفهم المراد منها ان قرع السمع في اول الكلام بما يعيي النفوس فهمه دافع لها ان تلتفت وتصغي وتزيد يقظتها وتستقصي في التأمل ، فيزداد بذلك انتفاعها بتفهم ما يلقي عليها ، وذلك ان النفوس مولعة بتتبع ما لم تفهمه ، والاستقصاء في البحث عنه ، فلا تزال تردد ذهنها فيه ، وكلما ازدادت تأملا ازدادت من فوائده استنباطاً وانتفاعاً ، والقرآن لا تنقضي عجائبه كما روى ذلك عن علي كرم الله وجهه ، وأيضا في احتواء القرآن على مالم يفهم ، وهو معنى المتشابه في رأي الكثير اختبار للايمان بالغيب الذي امتدح الله عزوجل صاحبه ، فهو في الاقوال بمنزلة التكليف بما لم تعرف حكمته تفصيلا من الافعال كرمي الجمار في الحج يختبر به رسوخ الايمان في النفوس وقوة اعتقادها بحكمة الامر ، فهي تطيعه فيما فهمت حكمته وفيما لم تفهم ، وهي تؤمن بان ما انزل الله على يد الصادق المصدق هو من عند الله سواء فيما فهمته وفيما لم تفهمه ، وهذا لا يكون الا حيث يرسخ الايمان بصدق المبلغ في النفس

رسوخاً لا يزلزله تعاصي فهم بعض ما بلغ قياساً له على ماملأها يقينـــاً وايمانـاً •

ومن حكمته أيضاً انه يوجه نفوس المعرضين الى الاستماع ، فيهجم عليه مما يليه من آيات الكتاب الحكيم ما يملك عليهم حواسهم ، ويجذب الى الهدى نفوسهم ، فقـد كانوا يقول بعضهم لبعض : لا تسمعوا لهـــذا القرآن والغوا فيـه ، فلما انزلت السور المبدوءة بحروف الهجاء ، وقـرع سمعهم ما لم يألفوا ، التفتوا واذا هم أمام آيات بينات استهوت قلوبهـم وجذبت اليها عقولهم ، فكان يؤمن من أراد الله له الايمان ، ويقترب من الايمـان من شـاء الله تأخيره الى أوان ، وتقوم الحجـة في وجـه اهـــل العناد والطغيان •

وقيل : بل المعنى المقصود منها معلوم ، وكونها من المتشابه لايمنع ذلك ، فالمتشابه يعلمه الله والراسـخون في العلم ، فان الوقف في آية آل عمران وهي قوله تعالى « وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم » هو على قوله : « في العلم » قالوا والا كان القرآن مشتملا على ما لم يفهـــم معناه ، فلم يكن تبياناً وهدى ، ولم يكن بلسان عربي مبين ، ولم يصلح جميعه للتحدي به ، فانـه لا يتأتى التحدي بمالم يفهم ، وعلى هـذا قيل : انها اسماء للسور المبدوءة بها ، ولا يضر اشتراك مسميات عدة في اسم واحد، كما يسمى جماعة كل منهم بمحمد او عبدالله مثلا ، ويكون التمييز بينهـــا باضافة كلمة اخرى نحو : ألم البقرة ، وألم آل عمران ، وألم لقمـان ، وهكذا ، فطه ، وطس ، ويس ، وق ، ون ، كلها اسماء للسور المبدوءة بها ، ولا يضر ان تسمى السورة باول كلمة منها لتعرف به وقيل ، بل هي أسماء للحروف التي يدل عليها التهجي وانمـــا ذكرت لبيان ان ماسيتلى عليهـــم ويعجزون عن معارضته هو مؤلف مما تناله قدرهم ويدور دائما على السنتهم،

فلا تعاصي في مادته على أحد منهم ، فاذا عجزوا عن تأليف هذه المادة الميسورة تأليفاً يضاهي ما انزل اليهم وقد زعموا انهم امراء الكلام وفرسان البيان تمت عليهم الحجة بانه ليس من تأليف البشر ، ووجب ان يعترفوا بانه من عند الله الحكيم العليم . وقيل : بل اشارة الى اسماء وصفات ، فالالف اشارة الى لفظ الجلالة ( الله ) ، واللام اشارة الى اسمه تعالى ( لطيف ) ، والميم اشارة الى اسمه تعالى ( الملك ) او الالف اشارة الى الله ، واللام اشارة الى جبريل ، والميم اشارة الى محمد ، وكأن المعنى : الله نزل جبريل بالوحي الى محمد .

وقال الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره لسورة آل عمران :

فاعلم ان القرآن كتاب سماوي والكتب السماوية تصرح تارة وترمز أخرى ، والرمز والاشارة من المقاصد السامية والمعاني العالية والمغازي الشريفة ، وقديماً كان ذلك في اهل الديانات ، ألم تر الى اليهود الذين هم كانوا منتشرين في المدينة وفي بلاد الشرق ايام النبوة كيف كانوا يصطلحون فيما بينهم على اعداد الجمل المعروفة اليوم في الحروف العربية فيجعلون الالف بواحد والباء باثنين والجيم بثلاثة والدال باربعة وهكذا مارين على الحروف الابجدية الى الياء بعشرة والكاف بعشرين وهكذا الى القاف بمائة والراء بمائتين وهكذا الى الغين بالف كما ستراه في هذا المقام ، كذلك ترى ان النصارى في اسكندرية ومصر وبلاد الروم وفي سوريا قد اتخذوا الحروف رموزاً دينية معروفة فيما بينهم ايام نزول القرآن وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية في مصر ، وكانوا يرمزون بلفظ ( اكسيس ) لهذه الجملة ، يسوع المسيح ابن الله المخلص ، فالالف من اكسيس هي الحرف الاول من لفظ ( ايسوس ) يسوع ، والكاف منها هي الحرف الاول من (كرستوس) المسيح ، والسين منها هي حرف الثاء التي تبدل منها في النطق في لفظ

( ثبو ) الله ، والياء منها تدل على ( ايوث ) ابن ، والسين الثانية منها تشير الى ( توتير ) المخلص ومجموع هذه الكلمات يسوع المسيح ابن الله المخلص ، ولفظ اكسيس اتفق انه يدل على معنى سمكة ، فاصبحت السمكة عند هؤلاء رمزاً لآلهتهم ، فانظر كيف انتقلوا من الاسماء الى الرمز بالحرف ومن الرمز بالحروف الى الرمز بحيوان دلت عليه الحروف • قال الحبر الانكليزي صموئيل مونتج : انه كان يوجد كثيراً في قبور رومة صور اسماك صغيرة مصنوعة من الخشب والعظم وكان كل مسيحي يحمل سمكة اشارة للتعارف فيما بينهم • اهـ • فاذا كان ذلك من طبائع الامم التي احاطت بالبلاد العربية وتغلغلت فيها ونزل القرآن لجميع الناس من عرب وعجم كان لابد ان يكون على منهج يلذ للامم ويكون فيه ما يألفون ، وستجد انه لانسبة بين الرموز التي في اوائل السور وبين الجمل عند اليهود ورموز النصارى الا كالنسبة بين علم الرجل العاقل والصبي ، أو بين علم العلماء وعلم العامة • فبهذا تبين لك ان اليهود والنصارى كان لهم رموز وكانت رموز اليهود هي حروف الجمل •

قال ابن عباس رضي الله عنهما : مر ابو ياسر بن أخطب برسول الله (ص) وهو يتلو سورة البقرة : آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه ) ثم أتى أخوه حيي بن أخطب وكعب بن الاشرف فسألوه عن ( آلم ) وقالوا نشدك الله الذي لا اله الا هو أحق انها أتتك من السماء ؟ فقال النبي (ص): نعم كذلك نزلت • فقال حيي : ان كنت صادقاً اني لا علم أجل هذه الامة من السنين ، ثم قالوا كيف ندخل في دين رجل دلت هذه الحروف بحساب الجمل على ان منتهى أجل امته احدى وسبعون سنة ، فضحك النبي (ص) ، فقال حيي : فهل غير هذا ؟ فقال نعم ( المص ) فقال حيي : هذا اكثر من الاول ، هذا مائة واحدى وستون سنة ، فهل غير هذا ؟ قال نعم ( الر ) فقال

حيي : هذا اكثر من الاولى والثانية فنحن نشهد ان كنت صادقاً ما ملكت امتك الا مائتين واحدى وثلاثين سنة ، فهل غير هذا ؟ فقال نعم ( المر ) قال حيي فنحن نشهد انا من الذين لا يؤمنون ولا ندري بأي اقوالك نأخذ • فقال أبو ياسر أما انا فأشهد على ان انبياءنا قد اخبرونا عن ملك هذه الامة ولم يبينوا انها كم تكون فان كان محمد صادقاً فيما يقول اني لاراه سيجتمع له هذا كله ، فقام اليهود وقالوا اشتبه علينا امرك كله فلا ندري أبا القليل نأخذ أم بالكثير • فبهذا تعرف ايها الذكي ان الجمل كانت للتعارف عند اليهود وهو نوع من الرموز الحرفية فكانت هذه الحروف لابد من نزولها في القرآن ليأخذ الناس في فهمها كل مذهب وينصرف الفكر فيها •

ولأقتصر لك مما قرأته على ثلاث طرائق فيما ترمز اليه هذه الحروف:

( الطريقة الاولى ) : ان تكون هذه الحروف مقتطعات من اسماء الله كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال : الألف آلاء الله واللام لطفه والميم ملكه ، وعنه ان ( الر ) و ( حم ) و ( ن ) مجموعها الرحمن ، وعنه ان ( الم ) معناه أنا الله اعلم ونحو ذلك في سائر الفواتح ، وعنه ان الالف من الله واللام من جبريل والميم من محمد أي القرآن منزل من الله بلسان جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام • أقول ان ابن عباس رضي الله عنهما انما اراد بذلك ان تكون الحروف مذكرة بالله عزوجل في اكثر الاحوال وذكر الله أجل شيء ، ويرجع الامر الى انها اسماء مرموز لها بالحروف كما تقدم عن الامم السالفة من النصارى في اسكندرية ورومة ، ولكن لابد ان يكون هناك ماهو أعلى وأعلى •

( الطريقة الثانية ) : ان هذه الحروف من اعجب المعجزات والدلالات على صدق النبي (ص) وهذا مما ترضاه النفوس ، ألا ترى ان حروف الهجاء

لا ينطق بها الا من تعلم القراءة وهذا النبي الامي (ص) قد نطق بها ، والذي في اول السور ١٤ حرفاً منها وهي ٢٨ حرفاً ان لم نعد الالف حرفاً برأسه و ١٤ نصفها ، وقد جاءت في ٢٩ سورة وهي عدد الحروف الهجائية اذا عدت فيها الالف ، وقد جاء من الحروف المهموسة العشرة وهي ( فحثه شخص سكت ) بنصفها وهي : الحاء والهاء والصاد والسين والكاف .

ومعلوم ان الحروف اما مهموسة وهي ما يضعف الاعتماد عليها وهي ما تقدم ، واما مجهورة ١٨ نصفها ٩ وهذه التسعة ذكرت في فواتح السور ويجمعها ( لن يقطع امر ) والحروف الشديدة ثمانية وهي (اجدت طبقك) واربعة منها في الفواتح وهي ( اقطك ) والحروف الرخوة عشرون وهي الباقية نصفها عشرة وهي في هذه الفواتح يجمعها ( خمس على نصره ) والحروف المطبقة اربعة ( الصاد والضاد والطاء والظاء ) وفي الفواتح نصفها ( ص ط ) وبقية الحروف وهي اربعة وعشرون حرفاً تسمى منفتحة ونصفها وهو ١٢ في الفواتح . فانظر كيف اتى في هذه الفواتح بنصف الحروف الهجائية ان لم تعد الالف وجعلها في ٢٩ سورة عدد الحروف وفيها الالف ، وكيف اتى بنصف المهموسة ونصف المجهورة ونصف الشديدة ونصف الرخوة ونصف المطبقة ونصف المنفتحة ، ولقد ذكرت لك قلاً من كثر مما ذكره العلماء في هذا المقام ولا اطيل عليك خيفة السآمة والملل وكفاك ما امليته عليك في هذه الطريقة الثانية لتعرف كيف أتى بهذه الاوصاف وكيف وضعت الحروف على هذا النظام ، اني موقن ان المتعلم لو طلب منه ان يأتي بهذه الحروف منصفة على هذا الوجه ما استطاع لذلك سبيلا فانه ان راعى نصف الحروف المطبقة فكيف يراعي الحروف الشديدة وكيف يراعي نصف المجهورة في نفس العدد ، ان ذلك دلائل على صدق صاحب الدعوة (ص) ففائدة هذا الوجه اهم من الوجه الاول فالاول فائدته تذكير

الانسان باسماء الله تعالى واما الوجه الثاني ففيه إعجاز للعقول وحيرة فيقال كيف تنصف الحروف الهجائية وتنصف انواعها من مهموسة وشديدة الخ وهذه الانواع لم يدرسها احد في العالم ايام النبوة ولما ظهرت وافقت تلك الحروف بانصافها ان ذلك ليعطي العقول مثلا من الغرابة الدالة على ان هذا لا يقدر عليه المتعلمون فإذن هو من الوحي وهذا الوجه على قوته يفضله ما بعده •

( الطريقة الثالثة ) : ان الله تعالى خلق العالم منظماً محكما متناسقاً متناسباً والكتاب السماوي اذا جاء مطابقاً لنظامه موافقاً لابداعه سائراً على منهجه دل ذلك على انه من عنده واذا جاء الكتاب السماوي مخالفاً لنهجه منافراً لفعله منحرفاً عن سنته كان ذلك الكتاب مصطنعاً مفتعلا متقولا مكذوباً ( ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ) •

والعالم المشاهد فيه عدد (٢٨) في :

(١) مفاصل اليدين في كل يد ١٤

(٢) وفي خرزات عمود ظهر الانسان منها ١٤ في اسفل الصلب و ١٤ في اعلاه •

(٣) خرزات العمود التي في اصلاب الحيوانات التامة الخلقة كالبقروالجمل والحمر والسباع وسائر الحيوانات التي تلد وترضع اولادها منها ١٤ في مؤخر البدن •

(٤) وهكذا عدد الريشات التي في اجنحة الطير المعتمدة عليها في الطيران فانها ١٤ ظاهرة في كل جناح •

(٥) وكذا عدد الخرزات التي في اذناب الحيوانات الطويلة الاذناب كالبقر والسباع •

(٦) وعمود صلب الحيوانات الطويلة الخلقـــة كالسمك والحيات وبعض الحشرات •

(٧) وعدد الحروف التي في لغة العرب التي هي أتم اللغات (٢٨) حرفاً منها (١٤) يدغم فيها لام التعريف وهي ت ث د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ل ن و ١٤ لا تدغم فيها وهي ا ب ج ح خ ع غ ف ق ك م هـ و ي

(٨) والحروف التي تخط بالقلم قسمان منها (١٤) معلم بالنقط ب ت ث ج خ ذ ز ش ض ظ غ ف ق ن و ١٤ غير معلمة وهي ا ح د ر س ص ط ع ك و هـ ل لا • وهذا الحرف هو الالف التي هي من حروف العلة اما الاولى فهي الهمزة فهذه ١٤ حرفاً بقيت الياء وهي تنقط في وسط الكلمة ولا تنقط في آخرها فاصبحت الحروف المعلمة ١٤ وغير المعلمـة ١٤ والحرف التاسع والعشرون معلم وغير معلم لتكون القسمة عادلة ، والفضل لهذا العدل للحكيم الذي وضع حروف الهجاء العربية فانـــه كان حكيما والحكيم هو الذي يتشبه بالله بقدر الطاقة البشرية وهـــذا جعل ٢٨ حرفاً مقســـمة قسـمين كل منها ١٤ كما في مفاصل اليدين وفقرات بعض الحيوانات •

(٩) ومنازل القمر ٢٨ منزلة في البروج الشمالية ١٤ وفي البروج الجنوبية ١٤ فهذا يفيد ان الموجودات التى عددها ٢٨ تكون قسمين كل منها ١٤ فهكذا هنا في القرآن جاءت الحروف العربيـة مقسمة قسمين منها ١٤ منطوق به في اوائلها ، وكأنه تعالى يقول : أي عبادي ان منازل القمر ٢٨ وهي قسمان ، ومفاصل الكفين ٢٨ وهي قسمان وهـكذا ، والحروف التي تدغم في حرف التعريف وهكذا التي هي معلمة كل منها ١٤ وضدها ١٤ فلتعلموا ان هذا القرآن هو تنزيـــل مني لاني نظمت حروفه على النمط الذي اخترته في صنع المنازل والاجسام الانسانية والاجســام

الحيوانية ونظام الحروف الهجائية فمن اين لبشر كمحمد أو غيره ان ينظم هذا النظام ويجعل هذه الاعداد موافقة للنظام الذي وضعته والسنن الذي رسمته والنهج الذي سلكته ، ان القرآن تنزيل مني وقد وضعت هذه الحروف في اوائل السور لتستخرجوا منها ذلك فتعلموا اني ما خلقت السماوات والارض وما بينهما باطلا بل جعلت النظام في العالم وفي الوحي متناسباً وهذا الكتاب سيبقى الى آخر الزمان ولغته ستبقى حية معه الى آخر الاجيال ، ان اللغات متغيرة وليس في العالم لغة تبقى غير متغيرة الا التي حافظ عليها دين وهل غير اللغة العربية حافظ عليها دين •

ومن الآراء الجديرة بالنظر في ذلك ما جاء في كتاب « النثر الفني في القرن الرابع الهجري » اذ يشير مؤلفة الدكتور زكي مبارك الى ان من مميزات القرآن « الابتداء » بألفاظ غير مفهومة مثل « آلم ، طسم ، الر ، ص ، ن ، ق » التي اختلف من تأويلها المفسرون ، والتي لم يهتد أحد الى المراد منها بالتحديد ، وهذا النمط من الابتداء لم نجده في النصوص الادبية الجاهلية ولا الاسلامية •

ثم يمضي الدكتور فيقول في كتابه هذا « كنت أتحدث عن فواتح السور مع المسيو بلانشو ، فعرض على تأويلا جديراً بالدرس والتحقيق ، وفي رأيه أن الحروف ( الم ، الر ، حم ، طسم » هي كالحروف (A O I) التي توجد في بعض المواطن من (Chansons degestt) [1] فهي ليست الا (Neumts) أي اشارات وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون •

« وقد كانت الموسيقى القديمة بسيطة يشار الى ألحانها بحرف أو

---

(١) معناها علامات للترنيم أو الترتيل أو الانشاد ( التونسى ) •

حرفين او ثلاثة ، وكـان ذلك كافيا لتوجيه المغنى او المرتـل الى الصوت المقصـود .

« وفي الكنائس المسيحية بأوربا حيث لاتزال تحفظ تقاليد الغناء الجريجورى (Le Chante Sregorien)[٢]، وفي اثيوبيا مثلا – يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك ، فان رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التي تقابل « الم » في القرآن ، أو (A O I) في نشيد رولان[٣] .

« ويؤيد رأى المسيو بلانشو أن « الم » تنطق هكذا عند الترتيـل ( ألف ، لام ، ميم ) فهي ليست رمزا كتابيا ، ولكنها حروف صوتية[٤] .

« ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل في القرآن سارت في طريق كان معروفا في الجاهلية ، ومن الواضح أن القرآن لم يـكن من همه أن يخالف الجاهليين من كل شيء حتى في الاصوات الموسيقية ، فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور اشارات صوتية لتوجيه الترتيل ، وأن تكون متابعة لبعض الترانيم الجاهلية .

---

(٢) الغناء الجريجوري أو الغريغورى نسبة الى البابا الكاثوليكي جريجوم أو غريغور الملقب « الكبير » ولي البابوية في روما ١٥ سنة ( ٥٩٠ ـ ٦٠٤ ) وأهم أعماله محاولته تنصير الانكلو سكسـون ، وترتيب الخدمات الدينية في الكنائس وتنظيم أغانيها ، ومن هنا نسبة هـذا النوع من الاغاني اليه ( التونسى ) .

(٣) رولان بطل ملحمة فرنسية من ملاحم القرون الوسطى سميت باسمه ، ومن محتوياتها النشيد المشار اليه ، وهو باسمه أيضاً ( التونسى ) .

(٤) رحم الله الدكتور ، فهل الرموز الكتابية كلها الا حروفا صوتية الا ما نسميه علامات الترقيم كالوقفة ، والفصلة والقوسين ( التونسى ) .

ونحن مع اعتدادنا بقيمة هذا الرأى نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحق من العناية ، مع تطوعهم لعرض كثير من الفروض ، ولو أنه كان معروفا في الصدر الاول لما تعرض لمثل هذا الاغفال •

« ومن يدري ، فلعل دراسة أصول الموسيقى في الكنائس الحبشية والشامية في العهد الذي سبق الاسلام - تعود على هذا الرأى بشيء من التوضيح والتحديد • والى ان تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأي بين الشك واليقين[٥] ( انتهى كلام الدكتور زكي مبارك في كتابه النثر الفني » •

وفي كتاب « مبحث جديدة عن القرآن الكريم » ينقل مؤلفه الاستاذ محمد صبيح ما أوردنا سابقاً من كتاب النثر الفني » ثم يقول « ونحن نتفق مع الدكتور زكي مبارك من أن لهذا الرأي قيمته ، ولكنه لم يهمل اهمالا كما قال ، اذ يقرب منه ما ذكر من ان هذه الحروف كانت تنبيها من الوحي

---

(٥) لابد من التوقف طويلا أمام هذا الرأي اذ ان مجرد دراسة أصول الموسيقا في الكنائس الحبشية والشامية في العهد الذى سبق الاسلام لايعود على هذا الرأي بشيء من التوضيح أو التجديد •• يظن الدكتور ، بل لابد الى جانب ذلك من معرفة أصول الموسيقا في بلاد العرب الشمالية ولاسيما الحجاز ، ومعرفة صلات القربى بين هذه وتلك ، والا فلا سبيل الى أدنى توضيح ولا تحديد ، وكيف بمعرفة ذلك كله مع بعده والجهل بمفاتيحه ، ونحن لا نزال حتى الآن نجهل أصول الموسيقى العربية كما أوضحها أبو الفرج الاصفهاني في كتابه الاغاني ، وهي أحدث عهدا ، واشارات الاصفهاني اليها كثيرة متنوعة ولكنها مغلقة أمامنا حتى الان ، فهل يكشف المستقبل هذه المخبآت • ( التونسي ) •

بقرب نزول القرآن ، أي انها أصوات كان النبي يسمعها ، ثم يرى نفسه قد جاشت بمعاني القرآن وألفاظه • فاذا اضفنا الى هذا ما ذكره الزمخشري من أنه أريد بها تنبيه الاذهان ، وقرعها قبل ابتداء قراءة السورة – كان القول قريبا من الصواب وقد يكمله مانقل السيوطي من أنه أريد مفاجأة العرب برموز واشارات لاعهد لهم بها ، ليزداد التفاتهم وتتنبه آذانهم ونفوسهم • ( انتهى كلام الاستاذ محمد صبيح )

---

## القسم في القرآن

القسم : ضرب من ضروب التأكيد والتوفيق في الكلام يؤتى به لتقوية الخبر وتحقيقه • وللتأكيد في الكلام صيغ وعبارات ودرجات هي من أدق أساليب البلاغة •

ان القرآن الكريم قد جاء على اسلوب كلام العرب الذي يكثر فيها القسم ، ولكن اقسام القرآن قد امتاز بها على سائر الكلام العربي بما فيها التناسب والملاءمة للمقسم عليه المقصود بالتأكيد لتقرير الاخبار في النفوس وتثبيتها في الاذهان •

وقد جاء القسم في القرآن على ضروب شتى :

فمن القسم بذاته تعالى وصفاته ، الى القسم بالنفس وما سواها ، وباليوم الموعود ، وبالقوى الروحانية الصالحة ، وبحياة الرسول الكريم ، وبالقرآن العظيم ، الى القسم باظهر ما يقع عليه الحس أو يدركه العقل من نماذج البدائع الكونية الدالة على عظمة المبدع وبالغ حكمته ، فأقسم تعالى بالسماء وما بناها ، والشمس والقمر والنجوم والفجر والصبح والضحى والعصر والليل

والنهار والليالي العشر والشفع والوتر ، وبالارض وبحارها ، وجبالها ، والبلد الأمين والبيت المعمور ، وبالرياح المرسلات ، والذاريات الناثرات ، والسحب والامطار ، وبالوالد وما ولد ، وبالقلم وما يسطرون ، وبما يبصرون •

وتوجد مناسبات بين المقسم به والمقسم عليه • وهذا النوع من التناسب بين أجزاء القول من اسمى ضروب البلاغة التي ترفع من قدر الكلام وتزيد في مائة وروائه وبهائه •

أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين والبلد الامين فقال تعالى «والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان من أحسن تقويم •• الخ » ليبين للناس مكانتها وعظم نفعها ونعمة الله عليهم فيها • وليس المراد القسم بالمطعوم والمأكول بل القسم بمنابت التين والزيتون وهي فلسطين ، فمنبت التين والزيتون مهاجر ابراهيم ومولد عيسى ومنشؤه ، فالكلام على حذف مضاف ، أي منبت التين والزيتون ويؤيد ذلك ماورد بعدهما وهو قوله تعالى ( وطور سينين وهذا البلد الامين ) لان المراد من الطور المكان الذي نودي منه موسى عليه السلام ، والبلد الامين هو المكان الذي ظهرت فيه دعوة الاسلام وولد فيه محمد (ص) • وانما أقسم تعالى بهذه الاماكن ليبين انها من البقاع التي انبثق منها نور النبوة والهدى على العالمين ولما لها من المنزلة في نفوس المؤمنين من جميع الاقوام •

وأقسم تعالى بالقلم وما يسطرون فقال « ن • والقلم وما يسطرون • ما أنت بنعمة ربك بمجنون » لان المشركين قد كانوا يقولون للنبي (ص) ( يا أيها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون ) وقد جاء الجواب بالسلب المؤكد فأقسم تعالى بأبسط عناصر القول وهي حروف الهجاء ، وباخص أدوات العلم وهو القلم وبالعلم نفسه على تنزيه محمد (ص) عما رموه به ، لان هذه كلها من خصائص الانسان العاقل بل هي من اجلى مزاياه واسماها •

واقسم تعالى بالضحى والليل اذا سجى فقال ( والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ) فكان القسم بالضوء في شباب النهار وبالظلام عندما يضرب على الارض بجرانه انه لم يهمل أمرك يا محمد ولم يبغضك ٠

وقد جاء هذا القسم رداً على اعدائه عليه الصلاة والسلام حينما قالوا ( ان ربه ودعه وقلاه ) على أثر تخلف الوحي عن الرسول الكريم بضعة عشر يوماً فاشتد حزنه عليه الصلاة والسلام ٠

وان الصلة وثيقة بين الضياء والوحي بقدر وثوق الصلة بين الظلام وانقطاع الوحي ، وفي هذا اشارة الى ان الوحي وعدمه يتعاقبان كتعاقب الليل والنهار ٠

وأقسم تعالى بالنجم المنير الذي لا يضل السبيل وبه يهتدي السارون في ظلمات البر والبحر بقوله : ( والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وماغوى ) ٠ ان محمداً عليه الصلاة والسلام على أهدى السبل وأقصرها ، فكما ان المهتدي بالنجم عند انحداره في سيره لا يضل فكذا الرسول الاعظم (ص) وقد انتهج انهج الطرق وأقومها لهداية البشر ٠

وقال تعالى ( فلا أقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم انه لقرآن كريم ) اذ النجم من اعلام الاهتداء في العاديات ويضرب به المثل في الرفعة وعلو المنزلة ، والقرآن علم الهداية في المعنويات وفي المكانة التي لا تسامى ٠

وقال تعالى ( فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس انه لقول رسول كريم ) فأقسم تعالى بالدراري التي نراها ونحن على الارض تجري مع الشمس ، ثم نراها راجعة حتى تختفي في ضوء الشمس ، واردف ذلك بالليل عند ادباره والصبح عند اقباله ،

وذلك لتثبيت ان القرآن وحي الهي يستضاء بنوره لمعرفة مالا تستقل العقول بادراكه ( وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً ) .

وقال تعالى ( والذاريات ذرواً فالحاملات وقراً فالجاريات يسراً فالمقسمات أمراً ان ما توعدون لصادق وان الدين لواقع ) . فأقسم بالريح التي تذرو البخار فينعقد سحاباً تحمله فتجري به في اجواز الفضاء وتوزعه على مختلف البقاع على صدق الموعود من البعث والنشور والحساب فالثواب أو العقاب .

وفي هذا تمثيل للبدء والعود ، فقطرة الماء بعد أن تتفرق ذرات دقيقه وتتبعثر في متايه الفضاء ترجع الى سيرتها الاولى من جديد فتتحدر الى انهارها فبحارها وان طال عليها الزمن ، كذلك حال الانسان ( كما بدأكم تعودون ).

وقال تعالى ( والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً والناشرات نشراً فالفارقات فرقاً فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً ان ما توعدون لواقع ) . فالرياح هي التي تبشر بالمطر قبل نزوله كما تنذر بكثير من العوارض الجوية ، والمرسلات الرياح الطليقه : والعرف التتابع ، والعاصفات الشديدة والناشرات الرياح تثير ذرات الماء فتنتشرها في الفضاء ، والفارقات المقسمات، ذكر تعالى هذه كلها لينبه الى ان ماوعد به الانسان من نعيم وعقاب وحشر ونشر لواقع وهو ملاقيه .

وأقسم تعالى بالزمن وابعاضه كالليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى ، فقال تعالى ( والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وما خلق الذكر والانثى ان سعيكم لشتى ) ليدل بذلك على ما لهذا الزمن عند الله من مكانة تفهم الانسان انه ما خلق هذا الزمن عبثاً وما أنعم الله به عليه ليشغله باللهو واللعب ويقطعه بالهزء والسخرية وزور القول ومنكره بل ليشغله بعبادة الله المنعم به وعمل

ما ينفعه ويفيده فان الله جاعل في مقابلة هذا الزمن القليل حياة آخرة أبدية لا تفنى ولا تنتهي ، فكل لحظة من زمن الانسان وعمره هنا يقابلها آلاف السنين بل اضعاف ذلك في جنات تجري من تحتها الانهار ـ أو نار وقودها الناس والحجارة ، فما كان هذا شأنه كان جديراً بأن يقسم الله به ليرد اللاهين اللاعبين فيه عن غيهم واضاعتهم لهذا الوقت الثمين •

ويرد أيضا على من ينسب الى الزمن النحس والشر والفساد فيسبه ويقول هذا زمن سوء وفساد وما الى ذلك مما هو من عمل الانسان وسوء تقديره ، ولا عيب على الزمان ولا ذنب له في فساد الانسان وسوء عمله ، ولينبه على ما في هذا الزمن من عظيم آيات الله الدالة على بليغ قدرته وبديع حكمته ، فانه قسمه الى ليل ونهار وظلمة وضياء وجعل في النهار الشمس سراجاً وفي الليل القمر نوراً وفي تعاقبهما وعدم أدراك احدهما الآخر أجل الآيات وأبلغها لقوم يفقهون • ( وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ) •

وان في مرور الليل والنهار واعتدالهما تارة وأخذ احدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما في الحر والبرد والربيع والخريف والشتاء والصيف ، وانتشار الحيوان وسكونه وانقسام العصر الى سنين وشهور والايام والساعات ان في كل ذلك لآيات لقوم يعقلون • ( قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمداً الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون • قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمداً الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ) •

من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ) • ( ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ) •

وقال الشيخ عبدالعزيز جاويش

اعلم ان لاستعمال القسم في سائر اللغات مقاصد عدة تختلف صورته باختلافها وتتنوع صيغته طبقا لها وليس هذا من خصائص اللغة العربية بل يشاركها في ذلك سائر اللغات العالية بل واللهجات الدنيا والرطانات البربرية فتجد الناس في كل مكان يحلفون برؤوس آبائهم وبشرف نفسهم وبقديم مجدهم وبقبور أقربائهم وبعيون أحبائهم وكذلك نجدهم يحلفون برأس المخاطب ولحيته وشرفه وبما يعز عليه من اولاده واحبته وهلم جرا •

والدارسون لغير اللغة العربية يشهدون معنا ان هذه الاقسام لم تكن مقصورة على القرآن ولا خاصة بلغة العرب ، ولكن الامراء أن العرب يتوسعون فيها كثيراً ويستعملونها في مواطن لا تقع لغيرهم من اصحاب اللغات الاخرى فهم في كثير من مواطن التأكيد لا يكاد يخلو كلامهم من الاقسام بعزيز عليهم أو شيء ذي بال لديهم • الى ان قال :

واذا علمت مما أسلفناه ان القرآن الكريم نزل بلسان العرب أدركت بكل وضوح وجلاء سر ما جاء فيه من الاقسام • فالقرآن الكريم في مواطن التأكيد والتنبيه واستمالة المخاطبين الى القول بما يقصه من الاخبار وما يأتي به من الاحكام يسلك سائر مسالك العرب في ايمانهم مطابقة لمقتضيات الاحوال وجرياً على سنة اهل ذلك اللسان •

ومن العبث والهوس ان يتساءل الناس كيف يحلف الله بخلقه وهو لا يرجوهم ولا يخشاهم ، أو كيف يحلف بغيره وهو الذي حرم الحلف بغير اسمه الشريف ، أو كيف يحلف الله على ما يقص من الاخبار وهو أصدق القائلين الى نحو ذلك مما ملأ به المفسرون كتبهم من ضروب الشكوك وصنوف الاشكال ، فاذا جرت الاقسام في سور القرآن وآياته فانما ذلك

لمعان اقتضتها البلاغة واستلزمتها الصناعة ونوعت صيغها وصورتها أسبابها المتنوعة ومراميها المختلفة •

فالقرآن الكريم لاسباب بلاغية يقسم بذات الله وبرسوله وبالتين والزيتون والطور والصافات والزاجرات والشمس والقمر والنجم والليل والعصر وبالقلم وما يسطره وبالسماء والارض والنفس وهكذا ••• اه

وقال الاستاذ الشيخ طنطاوي جوهري :

ان الله أقسم بأشياء مما خلق وعمد الى ما جمل شكله وعظم نفعه وبهر حسابه فعدده في أقسامه •

ولعمري أن النوع البشري لن يقسم الا بمعظم لديه أو بمسيطر عليه • يقول الولد وحق والدي ، وتقول الرعية ورأس فلان الحاكم ، والجندي يقسم بشرف الجندية ، ويقسم الوزراء بالملوك ، ونسمع الرجل يحلف بعينه لما يرى من منفعتهما وزينتهما • وقد اقسم الله بأشياء عددها وصنوف من نعم أبدعها كالشمس والقمر والكواكب ولم يكن ذلك لخوفه منها فانه الخالق لن يهاب ما خلق ولن يحتاج لما ذرأ وأبدع • أقسم بها اذ رأى نوع الانسان يقسم بما عظم نفعه وعز عليه فلفتهم وايقظهم الى ما ذرأ ونبههم الى مصنوعاته ليعرفوها فلم يرد أن يعبدوها اذ لا اله الا الله ، فالاقسام بها يرجع الى عزتها وشرفها ولم يكن ذلك لتحريضهم على الحصول عليها بوجودها في حوزتهم فذلك مستحيل فرجع الامر الى العلم وفات الانسان أن يملك هذه العوالم ويسيطر عليها اذ لا سلطان الا لواحد هو الله فكان المقصود من الاقسام في حقهم أن يعرفوا جلالة م يصنع ويتبعوا حركات الافلاك وعلوم الضوء وحسابه والمشارق والمغارب ويشرحوا تلك الاجسام ويلاحظوا حركاتها وسكناتها لترقى نفوسهم الى علوها وشرفها ، فتراه

عز شأنه أقسم بالفجر والفلق ( وهو الصبح ) والشمس والضحى والنهار والعصر والليل اذا يغشى ( يغطي ) المخلوقات كأنه ملاءة منشورة عليهم والليل اذا يسري يسير حول الكرة الارضية تابعاً النهار ـ والنهار يتبعه ، واقسم بالليالي العشر في اول كل شهر عربي لغلبة ظلامها على ضوئها ، واقسم بالنجم اذا هوى تنبيهاً على مغارب النجوم وإيقاظا لها ، واقسم بمواقع النجوم واماكنها الواقعة فيها ودوائرها ، ثم اعقبه بقوله وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، فاذا اقسم وعظم القسم فهل يكون ذلك الا للفتالنفوس اليها لتعرف مواقعها وقياسها وابعادها وحركاتها وسكناتها ، وقال ( اقسم برب المشارق والمغارب ) أي محل الشروق والغروب ، واقسم بالشفق وبالليل وبما وسق الليل أي جمع ، وأقسم بالقمر وبالسماء ذاتالبروج تنبيهاً لمعرفتها لتعرف السنون والشهور والايام ، واقسم بالسماء ووصفها بانها ذات الحبك أي طرف النجوم وبالقمر اذا اتسق امتلأ بالنور ، واقسم بالسماء وبمن بناها ، واقسم بالنازعات غرقاً وهي النجوم التي ترمي شهباً عن دوائرها المشبهات للقوس فكأن النجوم انسان والدائرة قوس والشهاب الساقط سهم ، وذكر انها نشطات في سيرها مسرعات فيه تتم دورتها سريعة ( فالمدبرات امراً ) وهي هذه النجوم لانها بها يتم تدبير العالم ، فذكر هذه الكواكب والعوالم ومواقعها ليحرض السامعين على البحث عنها فيعرفون الفلك والميقات وحساب الكواكب وابعادها واجرامها وتحليلها واعدادها بقدر الاستطاعة ويبحثون عن الضوء في الطبيعة • ثم ان الله تعالى اقسم بذكر اشياء اخرى مما تحت الفلك واحاط بالكرة الارضية فاقسم بالرياح الذاريات والجبال فقال ( والذاريات ذرواً فالحاملات وقراً ) أي الرياح التي تحمل السحاب وتذروا الاشياء • واقسم بالارض وماطحاها ، فالارض مفهومة وطحوها دحوها وتسويتها واتقانها ، واقسم بالجبل فقال ( وطور سينين )

وبالنبات فقال ( والتين والزيتون ) وبالبلد الذي خرج منه سيدنا محمد (ص) فقال ( وهذا البلد الامين ) واقسم بالخيل فقال ( والعاديات ضبحاً ) اي الخيل التي تعدو وهي تضبح في الجري ضبحاً ، واقسم بكل ما يحس فكأنه اقسم بكل محسوس وبكل ما يحس به وكأنه اقسم بالناطق والصامت فقال ( وشاهد ومشهود ) واقسم بيوم القيامة وبيوم الجزاء ويوم الميعاد الذي سيجازى فيه الناس ، واقسم بالكتب المسطرة المنثورة وهي ما يقرؤه الناس ، واقسم بالبحر ثم عمم القسم بكل ما خلق فقال ( اقسم بما يبصرون ومالا يبصرون ) فكأنه اقسم بكل شيء . اذاً العالم قسمان : ما يبصر ومالا يبصر ، وجاء بتعميم آخر فاقسم بالشفع والوتر ولا ريب أن العدد اما شفع او وتر .

هذه نحو عشرين قسماً أحاط بها الارض والهواء والسحاب والجبال والنبات والحيوان وخصص الانسان منه فقال ( ووالد وما ولد ) أي اقسم بآدم واولاده وغيرهم ، وخصص ذلك بعد فقال ( ونفس وما سواها ) فاقسم بالنفوس وتسويتها فتراه أقسم بامهات العالم كلها ، واخيراً اقسم بكل ما خلق مما نشاهد ومالا نشاهد .

تفيد هذه الاقسام بالعلويات وهي تبلغ عشرين وبالسفليات وهي تبلغ العشرين ايضاً ان الله أمر عباده واوجب عليهم النظر في العلويات والسفليات بالتساوي وفي الحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلم العمران والنفس وجميع العلوم اذا لم تخرج في البحث عما ذكر في تلك الاقسام التي اقسم بها مبدعها . وكأن الامة التي جهلت ما اقسم به واعرضت عنه ولم توفه حقه من النظر قد اعرضت عما أقبل عليه مبدعها وازورت عما اراده خالقها ...

# تناسب الآيات والسور[1]

المناسبة : في اللغة هي المشاكلة والمقاربة ، ومرجعها في الآيات ونحوها الى معنى رابط بينها عام او خاص ، عقلي او حسي او خيالي او غير ذلك من انواع العلاقات او التلازم الذهني كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين والضدين ونحوه ٠

وفائدته : جعل اجزاء الكلام بعضها آخذاً باعناق بعض ، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التآلف حاله حال البناء المحكم المتلائم الاجزاء ٠

قال الشيخ ولي الدين الملوي : قدوهم من قال لا يطلب للآي الكريمة مناسبة لانها على حسب الوقائع المفرقة ، وفصل الخطاب انها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلا فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف ، كما انزل جملة الى بيت العزة ٠ ومن المعجز البين اسلوبه ونظمه الباهر ، والذي ينبغي في كل آية ان يبحث اول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها او مستقلة ، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ، ففي ذلك علم جم وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له ٠٠٠

وذكر الآية بعد الاخرى اما ان يكون ظاهر الارتباط لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالاولى ، او كانت الثانية للاولى على وجه التأكيد او التفسير او الاعتراض او البدل ٠ وهذا القسم لا كلام فيه ٠

واما الا يظهر الارتباط بل يظهر ان كل جملة مستقلة عن الاخرى وانها خلاف النوع المبدوء به ، فاما ان تكون معطوفة على الاولى بحرف من

---

(١) ملخص عن الاتقان واسرار القرآن وغيرهما من التفاسير مع التصرف ٠

حروف العطف المشتركة في الحكم اولا ، فان كانت معطوفة فلابد ان يكون بينها جهة جامعة ( كالتضاد وشبه التضاد ) وقد جرت عادة القرآن اذا ذكر احكاماً ذكر بعدها وعداً أو وعيداً ليكون باعثاً على العمل بما سبق ، ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه ليعلم عظم الآمر الناهي • فان لم تكن الآية معطوفة فلابد من دعامة تؤذن بالربط ، وله اسباب احدها : التنظير فان الحاق النظير بالنظير من الشؤون المعقولة كقوله : « اولئك هم المؤمنون حقاً » فانه تعالى امر رسوله ان يمضي لأمره في الغنائم على كره من اصحابه كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير او للقتال وهم له كارهون • والغرض ان كراهتهم لما فعله من قسمة الغنائم ككراهتهم للخروج ، وقد تبين في الخروج الخير من الظفر والنصر والغنيمة وعز الاسلام فكذا يكونون فيما فعله بالقسمة فليطيعوا ما امروا به ويتركوا هوى انفسهم •

ومن اوجه الارتباط بين الجمل او القصص ما يسمى بالجامع الوهمي لأنه ليس في الواقع بجامع حقيقي ناجم عن تناسب وتلاحم بينها وانما هو التضاد او شبه التضاد يجمع في الذهن بين الاشياء المتضادة كالسواد والبياض والموت والحياة ، او الاشياء المتقابلة كالسماء والارض بمقدار ما بينها من التباعد في الخارج • ولا جرم ان حضور شيء في الذهن اذ ذاك حتى عند علماء الذهن من اسباب رسوخ المعنى في نفس الطالب ذكره منسوباً الى ما سبق لذهن السامع الاحاطة به من المعاني ، وصرحوا بان من الروابط التي تؤدي هذا المقصد وتكفي في تجاذب المعلومات بعضها بعضاً ان يكون بين المعاني القديمة والحديثة تشابه او تقابل •

ولهذا النوع من الروابط أعني التضاد في الكلام البليغ فوائد جمة ومآرب سامية منها تنبيه السامع وايقاظه قصداً الى تثبيت ما سبق ذكره من الكلام في ذهن السامع بارادفه بسرد ما يضاده او يناقضه او يقابله ، واستيعاب

ما للاحق من المزايا والخواص والنتائج التي تخالف مزايا السابق وخواصه ونتائجه •

وان شئت زيادة بيان فاعتبر بما جاء في اول سورة البقرة ، ذلك ان اول السورة كان حديثاً عن القرآن وأنه من شأنه هداية الموصوفين بالايمان من الناس فلما اكملت الآية صفات اولئك المؤمنين وبينت انهم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله وانهم الذين يؤمنون بما انزل على محمد (ص) وعلى من قبله من الكتب والوحي وانهم يوقنون بالآخرة ، اعقب ذلك حديثه عن الكافرين في قوله : « ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » الى آخر ما جاء في الآيات التالية حديثاً عن اولئك الكافرين • ولا يعزب عن الذهن ثمرات تعاقب هذه الاحاديث الواردة في امم من الناس تباينت مسالكها وتضاربت مذاهبها وانما قرن بين حديث المؤمنين وحديث الكافرين مع ان اول السورة حديث عن القرآن نفسه لأن الكتاب الكريم لا يؤمن به سوى المؤمنين الذين سردت الآية صفاتهم ، واما الكافرون الذين ناقضت صفاتهم صفات المؤمنين فانهم سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون •

فالآيات كلها من اول السورة الى آخر ما جاء حديثاً عن الكافرين الآيات انما قصد منه تأكيد أمر القرآن والحث على الايمان به والعمل بما تضمنه من ضروب الهداية والارشاد ولهذا أردفت جميع تلك الآيات بالرجوع الى مبدأ الكلام والتنصيص على الغرض الذى سيقت له تلك الاحاديث السابقة فقال تعالى بعد ما ذكر : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين الى آخر آيات الباب •

وقد قال الامام الرازي في تفسير سورة البقرة : ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم ان القرآن كما انه معجز بحسب فصاحة الفاظه وشرف معانيه ، فهو معجز أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا انه معجز بحسب اسلوبه أرادو ذلك ، الا اني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الاسرار وليس الامر في هذا الباب الا كما قيل :

والنجم تستصغر الابصـــار صورتـــه

والذنب للطرف لا للنجـــم في الصغر

ومن الابواب المألوفة جداً في العربية باب الاستطراد وباب حســن التخلص ، والفرق بين هذين البابين على ماهو مذكور في مواطنه انـــه في الاستطراد يذكر الشيء عرضاً بسبب مناسبة تولدت من السياق ، ثم اذا فرغ المتكلم من ذكر ما استطرد له يعود الى ذكر الشيء الذى هو مقصود بالذات ومعنى له فلا ينقلب عنه الى ماقبله .

وحسن التخلص : هو ان ينتقل مما ابتدىء به الكلام الى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاساً دقيق المعنى بحيث لا يشعر السامع معـــه بالانتقال من المعنى الاول الا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما .

والامر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات من جميع القرآن ، هــو انك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج اليه ذلــك الغرض من المقدمات ، وتنظر الى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عن انجرار الكلام في المقدمات الى ما يستتبعه مــن استشراف نفس السامع الى الاحكام واللوازم التابعة له التي تقتضى البلاغـة

شفاء العليل بدفع عناء الاستشراف الى الوقوف عليها • فهذا الامر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فاذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية في كل سورة •

ولترتيب وضع السور في المصحف أسباب تطلع على انه توقيفي صادر عن حكيم :

١ ـ بحسب الحروف كما في الحواميم •

٢ ـ موافقة اول السورة لآخر ما قبلها ، كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة •

٣ ـ التوازن في اللفظ كآخر تبت وأول الاخلاص •

٤ ـ مشابهة جملة السورة للجملة الاخرى كالضحى وألم نشرح •

قال بعض الائمة : سورة الفاتحة تضمنت الاقرار بالربوبية والالتجاء اليه في دين الاسلام والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية • وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين ، وآل عمران مكملة لمقصودها •

فالبقرة بمنزلة اقامة الدليل على الحكم ، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم ، ولهذا ورد فيها ذكر المتشابه لما تمسك به النصارى ، وأوجب الحج في آل عمران واما في البقرة فذكر انه مشروع وامر باتمامه بعد الشروع فيه ، وكان خطاب النصارى في آل عمران أكثر كما ان خطاب اليهود في البقرة أكثر لان التوراة اصل الانجيل فرع لها • والنبي (ص) لما هاجر الى المدينة دعا اليهود وجاهدهم وكان جهاده للنصارى في آخر الامر كما كان دعاؤه لاهل الشرك قبل أهل الكتاب ولهذا كانت في السور المكية الدين الذى اتفق عليه الانبياء ، وخوطب به جميع الناس ،

والسور المدنية فيها خطاب من أقر الانبياء من أهل الكتاب والمؤمنين فخوطبوا يا أهل الكتاب ، يا بني اسرائيل ، يا أيها الذين آمنوا .

وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الاسباب التي بين الناس ، وهي نوعان : مخلوقة لله ، ومقدرة لهم كالنسب والصهر ، ولهذا افتتحت بقوله « اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ثم قال « واتقوا الله الذى تسءلون به والارحام » فانظر هذه المناسبة العجيبة في الافتتاح وبراعة الاستهلال حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما أكثرت السورة في أحكامه من نكاح النساء ومحرماته والمواريث المتعلقة بالارحام ، فان ابتداء هذا الامر كان بخلق آدم ثم خلق زوجته منه ثم بث منهما رجالا كثيراً ونساء في غاية الكثرة . وأما المائدة فسورة العقود تضمنت بيان تمام الشرائع ومكملات الدين والوفاء بعهود الرسل وما أخذ على الامة وبها تم الدين ، فهي سورة التكميل لان فيها تحريم الصيد على المحرم الذى هو من تمام الاحرام وتحريم الخمر الذي هو من تمام حفظ العقل والدين وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين الذي هو من تمام حفظ الدماء والاموال واحلال الطيبات الذي هو من تمام عبادة الله تعالى ، ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد (ص) كالوضوء والتيمم والحكم بالقرآن على كل ذي دين ، ولهذا أكثر فيها من لفظ الاكمال والاتمام ، وذكر فيها ان من ارتد عوض الله بخير منه ، ولا يزال هذا الدين كاملا ، ولهذا ورد انها آخر ما أنزل لما فيها من اشارات الختم والتمام . وهذا الترتيب بين هذه السور الاربع المدنيات من احسن الترتيب .

وقال الشيخ طاهر الجزائري في كتابه التبيان ما ملخصه :

ومرجع المناسبة هو المعنى الذي يربط بين المتناسبين سواء كان حسياً أو عقلياً أو غير ذلك . وفائدتها جعل أجزاء الكلام آخذاً باعناق

بعض حتى يصير حاله كحال البناء المحكم المتلائم الاجـــزاء • قال بعض الأئمة : من محاسن الكلام أن يرتبط بعضــه ببعض حتى يـكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني • ولنذكر شيئاً مما يتعلق بذلـــك فنقول :

اذا وردت جملة بعد جملة فان كانت الثانية متممة للاولى كأن تكون مؤكدة لها أو مفسرة لها أو مبدلة منها فالامر في ذلك ظاهر ، وان كانـت مستقلة عما قبلها ، فان كانت معطوفة عليه فلابد أن يكون بينهما جامع نحو قوله تعالى « يعلم ما يلج في الارض ، وما يخرج منها ، وما ينزل مـــن السماء ، وما يعرج فيها » وقوله تعالى : « والله يقبض ويبسط ، واليـــه ترجعون » وأنواع الجوامع كثيرة والجامع هنا التضاد ، وان كانت غـــير معطوفة على ما قبلها لم يلزم أن يكون بينهما جامع لورودها حينئذ عـــلى طريق الاقتضاب ، وذلك نحو قوله تعالى " كلا ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى " وقال كثير من العلماء يلزم هنا أيضاً ان يكون بينها جامع وعلى ذلك جـرى بعض المفســرين حيث قـــال : يقـــول تعـــالى ما هـكذا ينبغي أن يكون الانسان أن ينعم عليه ربه بتسوية خلقه وتعليمه ما لم يكـن يعلم ثم يكفر بربه الذي فعل به ذلك ويطغى عليه ان رآه استغنى •

ثم قال : للعرب في الانتقال من امر الى آخر طريقان ، أحدهمـــا الاقتضاب والآخر التخلص •

أما الاقتضاب : فهو الانتقال من أمر الى آخر بغتة من غير أن يمهد له تمهيداً يجعله كأنه من تتمة الامر الاول وهـذا هو مذهب العرب ومن يليهم من المخضرمين وذلك نحو قوله تعالى « كذبت ثمود بالنذر » وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم »

وقد يقع في الاقتضاب لفظ يدل على الانتقال من أمر الى امر آخر وذلـــك مثل هذا في قوله تعالى " هذا وان للطاغين لشر مآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد » فان هذا ورد بعد وصف جنات عدن وبيان ما فيها مما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين .

وأما التخلص : فهو الانتقال من أمر الى أمر آخر من بعد ان يمهـد له تمهيداً يجعله كأنه من تتمة الامر الاول ، وقد وقع التخلص في القرآن الكريم مثل قوله تعالى « وأتل عليهم نبأ ابراهيم ، اذ قال لابيه وقومه مـا تعبدون » الآيات . فان في قوله « فانهم عدو لي الا رب العالمين » تخلصـاً من ذكر الاصنام الى ذكر الله تعالى . ثم أجرى عليه تلك الصفات الدالـة على عظم شأنه ووفور احسانه لينبههم على ان من كان كذلك فهو الجدير بأن يعبد ، والفرق بين التخلص والاستطراد ان الاستطراد يشترط فيــــه الرجوع الى الكلام الاول حتى يكون المستطرد به آخر الكلام وهــذان الامران معدومان في التخلص فانه لا يرجع فيه الى الاول ولا يقطع فيـــه الكلام بل يستمر فيه على ما تخلص اليه .

والاستطراد : هو أن يأخذ المتكلم في معنى فبينا يمر فيه يأخـــذ في معنى آخر وقد جعل الاول سبباً اليه وذلك كقوله تعالى « ومن آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، ان الذى احياهـا لمحيي الموتى » فان الله سبحانه بينا يذكر انزاله الغيث واهتزاز الارض بعد خشوعها بسببه ذكر ان الذي أحيا الارض قادر على أحياء الموتى واعادتهـا بعد بلاها . وكقوله تعالى " ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود " . وكقولـه تعالى « فان أعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .

---

# اسلوب القرآن

## وفصاحته ونظمه وتركيبه

اخرج الحاكم والبيهقي عن عبدالله بن عباس (رض) : ان الوليد بن المغيرة جاء الى النبي (ص) فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال : يا عم ان قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه فانك أتيت محمداً لتعرض لما قبله ، قال : قد علمت قريش اني من اكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك انك منكر له ، قال : وما أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، لا برجزه ولا بقصيده ولا باشعار الجن، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا ، والله ان لقوله الذي يقول لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمثمر اعلاه ومغدق اسفله ، وانه ليعلو وما يعلى وانه ليحطم ما تحته .

وذكر في حديث اسلام أبي ذر الغفاري (رض) انه وصف أخاه أنيساً فقال : والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس ، لقد ناقض اثنى عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم وانه انطلق الى مكة وجاءني قلت فما يقول الناس ، قال يقولون شاعر كاهن ( أي هم حيارى في وصف رسول الله ) ثم قال انيس : لقد سمعت ما قاله الكهنة فما هو قولهم ، ولقد وضعته على اقراء الشعر فلم يلتئم وما يلتئم على لسان أحد بعدي انه شعر ، وانه لصادق وانهم لكاذبون .

روى ابن اسحاق ان قريشاً جعلوا اذا جهر رسول الله بالقرآن وهو يصلي يتفرقون عنه ويأبون ان يستمعوا له خوفاً من تأثيره على نفوسهم ، وكان الرجل منهم اذا أراد أن يستمع من رسول الله بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلي استرق السمع دونهم فرقاً منهم فان رأى انهم قد عرفوا

انـــه يســـتمع منـه ذهب خشـيـة اذاهـم فلـم يســـتمع ، وان خفض رســـول الله صوتـــه فظن الذي يســـتمع انهـم لا يســـتمعون شيئا من قراءتـه وســـمع هو شـيئاً دونهـم اصـــاخ لـــه يســتمع منـه ، وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما انما نزلت هذه الآيـــة : " ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » من أجل هؤلاء النفر .

وروى ابن اسحاق ايضاً : ان ابا سفيان وابا جهل والاخنس خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله (ص) وهو يصلي في الليل بالبيت فأخذ كـــل رجل منهم مجلسا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهـم لبعض لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا حتى اذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم الى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثـــل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا ، حتى اذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى اذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهـــم لبعض لانبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهـدوا على ذلك ثم تفرقوا ، فلما اصبح الاخنس اخذ عصاه ثم خرج حتى اتى ابا سفيان في بيته فقال : اخبرني يا ابا حنظلـة عن رأيك فيما ســمعت من محمد ، فقـــال يا ابا ثعلبة والله لقد سمعت اشياء اعرفها واعرف ما يراد بها وســمعت اشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها فقال الاخنس : انا والـــذي حلفت به كذلك ، ثم خرج الاخنس من عنده حتى اتى ابا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا ابـــا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ، فقـــال : ماذا ســمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، اطعموا فاطعمنا ، وحملوا فحملنا ، واعطوا فاعطينا

حتى اذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به ابدا ولا نصدقه ، فقام عنه الاخنس وتركه •

ولقد كانت قريش ترق قلوبها لسماع القرآن ، ولكن نزاع العصبية الجاهلية من رآسة وشرف وتقدم كان يحجمها عن الايمان والدخول تحت لواء الاسلام والاهتداء بهدي القرآن •

ولقد اخذت قريش تمنع المسلمين من قراءة القرآن جهارا كيلا يفتتن به الناس ويؤمنوا بما جاء به ، ومن ذلك ان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ذهب مرة الى الكعبة وقت الضحى وقام عند المقام وقريش في انديتها ، ثم قرأ بصوت عال ( بسـم الله الرحمن الرحيم • الرحمن • علم القرآن • خلق الانسان علمه البيـان • الشمس والقمـر بحسبان • والشمس والشجـر يسجدان ) فاصاخت قريش السمع حتى تنبهوا الى انه يتلو القرآن ، فصاح أحدهم انه يتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا اليه ، فجعلوا يضربون وجهه ، وجعل يقرأ حتى آذوه اذى شديدا واصابوه بجروح في وجهه ، فلما عاد الى اصحابه من المسلمين قالوا له : هذا الذي خشينا عليك ، فقال عبدالله : ما كان اعداء الله اهون علي منهم الآن ولئن شئتم لاغادينهم بمثلها غدا ، فقـال له المسلمون ، لا • حسبك قد اسمعتهم ما يكرهون •

فاسلوب القرآن الكريم هو اعجب العجايب لمن تفكر وتبصر : ولقـد استولى بفصاحة اسلوبه وعجيب نظمه على نفوس العرب واستبد بارادتهم ، وغلب على طباعهم ، وحال بينهم وبين ما نزعوا اليه من خلافه ، حتى انعقدت قلوبهم عليه وهم يجهـدون في نقضـه ، واستقاموا لدعوته وهـم يبالغون في رفضها ، فكانوا يفرون منه في كل وجه ثم لا ينتهون الا اليه لانه اخذ عليهم بفصاحته واحكام اساليبه جهات النفس العربية ، فلم يدع لهم سبيلا الى المكابرة

الا باللسان ، لقد تحداهم ان يأتوا بمثله فعجزوا ، ثم بعشر سور مفتريات تحاكيه فعجزوا ، ثم بسورة من مثله فلما عجزوا صرخ في وجوههم ( وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين ) .

ولولا ان اسلوب القرآن الكريم جاء على هذا النمط من الاحكام والفصاحة لما انتهى امره الى أكثر مما ينتهي اليه امر كل كتاب في الارض ، ولما كان له اثره في اولئك العرب ولما احجموا عن معارضته وفيهم اللسن المقاول ، ولما بذلوا مهجهم ودماءهم في الحروب والمجالدة ، ولكن القرآن الكريم ملك عليهم مذاهب البيان وأراهم عجزهم لمس اليد فاستكانوا في نهاية امرهم لدعوته بعد طول العناد . وهاهو القرآن الكريم تمر به السنون والاعوام مدة اربعة عشر قرنا ولم يدع احد معارضته الا رجع ذليلا ناكصا على عقبيه ، وها هم امراء الفصاحة والبلاغة طوال تلك المدة يشهدون باعجازه ويقرون له صاغرين بالمرتبة العليا التي لا تمتد لها الاعناق ، كيف لا وهو يتضمن التعبير للزمن على اختلاف ادواره وتباين اطواره باسلوب انيق ونظم رشيق تضمن الكنايات البديعة الجميلة والامثال النبيلة والاستعارات الشائقة والمجازات البليغة واللغة المتينة ، في حين انه يخاطب العقل والروح والمشاعر والعواطف ، ويملك على النفس جميع مناحيها .

انظر القرآن حينما يلفت قارئه الى هذا الوجود وآياته من شمسه وقمره وليله ونهاره وبحره وبره وسمائه وارضه ونباته وحيوانه ، وكيف يشير الى موضعه من الآية ، وكيف جاء به على نهج قد وسع العرب وفصاحتها ، وبلوغها النهاية في حسن النظم ورعاية المقام ، ومطابقة الحال الذي يليق بهم ، مخاطبا مع العقل المشاعر والاحساس ، في حين انه وسع علماء الفلك

وعلماء الطبيعة وعلماء الاجنة وعلماء التشريح والطب وعلماء الحيوان والنبات على اختلاف العصور واطوارها الى القرن الرابع عشر[1] •

قال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره « فان شئت ان تشعر سمعك وذوقك بالفرق بين نظم الكلام البشرى وبين الكلام الالهي فأت بقاريء حسن الصوت يسمعك بعض اشعار المفلقين وخطب المصاقع المفوهين من المتقدمين والمتأخرين بكل ما يستطيع من نغم وتحسين ، ثم ليتلو عليك بعد ذلك بعض سور القرآن المختلفة النظم والاسلوب كسورة النجم وسورة الرحمن وسورة الواقعة وسورة الحديد مثلا ثم حكم ذوقك ووجدانك في الفرق بينها في انفسها ، ثم في الفرق بين كل منها وبين كلام البشر في كل اسلوب من اساليب بلغائهم وتأثير كل من الكلامين في نفسك بعد اختلاف وقعه في مسمعك •

## طرق الاعجاز في القرآن

قال الامام فخر الدين الرازي في تفسيره ما ملخصه :

اعلم ان كون القرآن معجزا يمكن بيانه من طريقين :

الاول ـ ان يقال ان هذا القرآن لا يخلو حاله من احد وجوه ثلاثة : اما ان يكون مساويا لسائر كلام الفصحاء او زائدا عليه بقدر لا ينقص العادة ، او زائدا عليه بقدر ينقص العادة • والقسمان الاولان باطلان فتعين الثالث • وانما قلنا انهما باطلان لانه لو كان كذلك لكان من الواجب ان يأتوا بمثل سورة منه اما مجتمعين او منفردين ، فان وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول فالشهود والحكام يزيلون الشبهة وذلك نهاية في الاحتجاج لانهم

---

(١) الهداية الاسلامية

كانوا في معرفة اللغة والاطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية وكانوا في محبة ابطال امره في الغاية حتى بذلوا النفوس والاموال وارتكبوا ضروب المهالك والمحن وكانوا في الحمية والانفة على حد لا يقبلون الحق فكيف الباطل وكل ذلك يوجب الاتيان بما يقدح في قوله والمعارضة اقوى الفوادح فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها ، فثبت ان القرآن لا يماثل قولهم وان التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتا معتادا فهو اذن تفاوت ناقض للعادة فوجب ان يكون معجزا .

الطريق الثاني : ان نقول ان القرآن لا يخلو اما ان يقال انه كان بالغا في الفصاحة الى حد الاعجاز او لم يكن كذلك فان كان الاول ثبت انه معجز وان كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة ، فعدم اتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة ومع توفر دواعيهم على الاتيان بها امر خارق للعادة فكان ذلك معجزا . فثبت ان القرآن معجز على جميع الوجوه وهذا الطريق اقرب الى الصواب . واعلم انه قد اجتمع في القرآن وجوه كثيرة تقتضي نقصان فصاحته ومع ذلك فانه بلغ في الفصاحة غلبة ليس وراءها غلبة فدل ذلك على كونه معجزا :

أحدها : ان أكثر فصاحة العرب في وصف المشاهدات مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة وليس في القرآن من هذه الاشياء شيء فكان يجب الا تحصل فيه الالفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامها .

ثانيها - انه تعالى التزم فيه طريقة الصدق وكل بليغ التزم ذلك نزل كلامه عن مرتبة البلاغة ، ألا ترى أن لبيداً وحساناً لما اسلما نزل شعرهما ولم يكن شعرهما الاسلامي في الجودة كشعرهما . ومع تنزه القرآن عن الكذب والمبالغة جاء على ما تراه من الفصاحة التي ليست بعدها غاية .

ثالثها ــ ان النثر الفصيح والنظم الفصيح انما يتفق في الرسالة نـدرة منه وفي القصيدة البيت والبيتان والباقي لا يكون كذلك ، وليس القرآن كذلك لانه كله فصيح بحيث عجز البشر عن الاتيان بسورة منه كما عجزوا عن الاتيان بمثله جملة .

رابعها ــ ان من قال قولا فصيحاً في وصف شيء فانه اذا كررها لـم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الاول بخـــلاف القرآن فانه أتى بالاوصاف المختلفة في المواضيع المختلفة للشيء الواحد كل ذلك في نهاية الفصاحة .

خامسها : انه أتى بايجاب العبادات وتحريم القبائح والحث على مكارم الاخلاق واحتقار الدنيا واختيار الاخرى وامثال هذه المطالب التي لم يسبق اليها توجب تقليل الفصاحة ومع ذلك فقد أتى القرآن في ذلـك بالعجب العجاب .

سادساً : الفحول من البلغاء قلما يبرزون الا في اعتراضـــات معينة ويضعفون في غيرها ولهذا يقولون أشعر الشعراء في الجاهلية امرؤ القيس اذا ركب والنابغة اذا رهب والاعشى اذا طرب وزهير اذا رغب وعنترة اذا كلب بمعنى ان الاول مبرز في وصف الخيل والثاني في الاعتذار والثالث في وصف الخمر والرابع في المديح والخامس في وصف المعارك والفتك . أما القرآن فانه احرز قصب السبق في كل المواضيع التي ذكرها والفنون التي سلكها .

سابعها : ان القرآن اشتمل على المعارف العظيمة والاسس الاجتماعية الرصيفة حتى أصبح قطباً تدور حوله العلوم الكثيرة ومعيناً يغترف منـه المسلمون ما فيه صلاح معاشهم ونجاح معادهم اهـ .

وقال الشيخ محمد عبده في رسالته في التوحيد ما ملخصه :

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تتطرق اليه الريبة ان النبي (ص) كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا ، وتواترت اخبار الامم كافة انه جاء بكتاب قال انه انزل عليه وأن ذلك هو القرآن المكتوب في المصاحف المحفوظ في صدور من عني بحفظه من المسلمين الى اليوم . كتاب حوى اخبار الامم الماضية ما فيه معتبر للاجيال الحاضرة والمستقبلة ، نقب على الصحيح منها ، وغادر الاباطيل التي الحقتها الاوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها .

حكى عن الانبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم ، وما كان بينهم وبين اممهم ، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدين برسالاتهم .

أخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم ، وما خلطوا في احكامهم ، وما حرفوا بالتأويل في كتبهم ، وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة بالعمل بها والمحافظة عليها . وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قدره . ثم عظمت المضرة في اهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته ، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر في شرائع الامم ، ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع له القلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم انصرافها في سبيل الامم .

نزل القرآن في عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار على انه أرقى الأعصار عند العرب واغزرها مادة في الفصاحة وانه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطابة وانفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب في القول والسبق

الى اصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الاذعان من العقول ، وتفانيهم في المفاخرة بذلك مما لا يحتاج الى الاطالة في بيانه •

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي (ص) والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه وتكذيبه في الاخبار عن الله ، واتيانهم في ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته ، والامراء الذين يدعوهم السلطان الى مناوأته ، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد اشتد جميع اولئك في مقاومته ، وانهالوا بقواهم عليه استنكاراً عن الخضوع له وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان أبائهم ، وحمية لعقائدهم وعقائد اسلافهم ، وهو مع ذلك يخطيء آراءهم ، ويسفه احلامهم ، ويحتقر أصنامهم ، ويدعوهم الى ما لا تعهده أيامهم ، ولم تخفق لمثله اعلامهم ولا حجة له بين يدي ذلك كله الا تحديهم بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله وكان في استطاعتهم أن يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ما شاؤا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليبطل الحجة ، ويفحم صاحب الدعوة •

جاءنا الخبر المتواتر انه مع طول زمن التحدي ، ولجاجة القوم في التعدي ، اصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخيبة ، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضاء حكمه العلي على جميع الاحكام ، أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل برهان على انه ليس من صنع البشر ، وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهي ، والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الامي (ص) • هذا وقد جاء في الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون كالخبر في قوله تعالى :

« ٣٠ : ٢ غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » وكالوعد الصريح في قوله « ٢٤ ، ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ) الآية • وقد تحقق جميع ذلك ، وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته •

ومن الكلام على الغيب فيه ما جاء في تحدي العرب به واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد اطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع ارجائها • ومع انه لم يسبق له (ص) السياحة في نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشري عادة عن الاحاطة بما أودع في قوى أمة عظيمة كالامة العربية ، فهذا القضاء الحاتم منه بانهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا • ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط كالذي شرطه على نفسه • لغلبة الظن عند من له شيء من العقل ان الارض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم والخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول من استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه •

يقول واهم : ان العجز حجة على من عجز فان العجز هي حجة الافحام والزام الخصم • وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ، فمن الممكن الا يسلم غيره بما سلمه • فلا يفحمه الدليل • بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل •

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان • اذ لا يوجد من المشابهة بين أعجاز القرآن وافحام الدليل الا انه يوجد عن كل منهما عجز • وشتان بين العجزين • وبقدر ما بين وجهة الاستدلال فيهما ، فان اعجاز القرآن برهن على أمر واقعي وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة وقلنا « القوى البشرية » لانه جاء بلسان عربي وقد عرف الكتاب عند جميع العرب في عهد النبوة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا • وحال القوم في العنا د كما بينا • ومع ذلك لم يكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم • فلا يعقل ان فارسياً أو هندياً أو رومياً يبلغ من قوة البلاغة في العربية أن يأتي بما عجز عنه العرب أنفسهم • وتقاصرت القوى جميعها عن ذلك • مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية • وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر • فهو اختصاص من الله سبحانه وتعالى لمن جاء على لسانه • ثم ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم • والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة • مما يدل على الثقة منه على ما سبق تعداده من الامور التي لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الاجل كل ذلك يدل على ان الناطق هو عالم الغيب والشهادة • لا رجل يعظ وينصح على العادة •

فثبت بهذه المعجزة العظمى • وقام الدليل بهذا الكتاب الباقي الذي لا يعرض عليه التغيير • ولا يتناوله التبديل ا هـ •

وقال الاستاذ محمد فريد وجدي ما ملخصه : ان العلة في نظرنا واضحة لا تحتاج الى كبير نائل وهي ان القرآن روح من امر الله • وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، فهو يؤثر بهذا الاعتبار تأثير الروح في الاجساد فيحركها ويتسلط على اهوائها •

فهذه الآية وحدها تكفي في ارشادنا الى جهة أعجاز القرآن وقصور الانس والجن على الاتيان بمثله • وهذا هو سر بقـــــائه وخلوده تتلألأ أنواره الزاهية ، فهو ذو روحانية خاصة لها شأنها الاسمى هي سر الاعجاز وهي التي قلبت شكل العالم وكسبت تلك الطائفة القليلة العدد خلافة الله فـــي أرضه وارغمت لها معاطس كل جبار عنيد حتى صاروا ملوك الملوك واخوان الملائكـة في مـدة لا يصعب عد سنينها على الاصـابع « يلقي الـروح مـن أمره على ما يشاء من عباده " •

لا مشاحة في ان القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغـة وقادة الخطابة وملوك البيان • وهو حكيم بهر سماسرة الحكمة • وادهش أساطين التشريع • وحير اراكين التنظيم والتقنين • وهو حق الزم كـل غال الحجة ودل كل باحث على المحجة ، وهو هدى ونور وشفاء لمـا في الصدور • كل هذه صفات جلية تؤثر على العقل والشعور والعواطـــف والميول فتتحكم بها تحكم المالك في ملكه ولكنه فوق ذلك كله هو «روح من أمر الله » تصل من روح الانسان الى حيث لا تصل اليه أشعة البلاغـــة والبيان ولا سيالات الحكمة والعرفان وتسري من صميم معناه الى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر • تنفذ هذه الروحانية الى سريرة الانســان وتستولي منهـا على أصل حياتـه ومهب عواطفـه واحساساته وتخلقه خلقاً جديداً ، ألا ترى كيف فعلت بأولئك العرب الذين لبثوا قروناً عديدة على حالة واحدة لا يتحولون عنها فنفحتهم بروح عالية جالوا بواسطتها جولتهم المشهورة واخضعوا لسلطانهم معظم المعمورة ونشروا في ارجائها الفضـائل والكمالات بعد أن كانوا ممزقين مشتتين لا تجمعهم جامعة سياسية ولا تؤلف بينهم رابطة قومية ولا دينية • على ان القرآن روح الهي وامر سماوي ،

وأي وجه من اعجازه اوقع في النفس وانفى للشك واولى بالقبول من وجه روحانيته ، أي انسان يرى العربي الذى كـان بالامس جزاراً او راعياً او تاجراً ، وكان مغمورا في جمهور جاهل لا يحترم دستورا ولا يخضع لنظام • ثم اصبح بعد ان اهتدى بمنار هذا الكتاب قائداً محنكا يقود جيشا يرغم به معاطس الجبابرة • ثم لا يلبث أن يرفع المعدل مناراً ويغمر تلك الامم المغلوبة بجلائل الفضائل ومحاسن الكمالات ، أى انسان يرى ذلك ولا يقر بأن العربي قد اكتسب روحاً لم تكن فيه من قبل وليست من جنس الارواح الموجودة في علياء النفوس واصحاب الفضائل من الافراد • كيف لا يستدل هذا الانسان بالحس على تلك الروحانية وقد اصبح يرجو من كان يخافه ويتعلم ممن كان لا يرى أجهل منه • ويتخلق باخلاق من كان لا يرى شراً اكثر منه • ومن هذا يظهر إن للقرآن فوق الفصاحة والحكمة والدستور روحانية يدركها من لاحظ له في فهم بلاغة الكلام وتقدير الحكمة وادراك الدستور • فهذه الروحانية تظهر لمعارف باللغة ومرامي بلاغتها ، وللجاهل بذلك ، تظهر للاول بذاتها وللثاني باثرها ونتائجها •• اهـ •

وقال الاستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه اعجاز القرآن ما ملخصه :

لا جرم كان القرآن في نظمه وتركيبه نمطاً واحداً في القوة والابداع لا تقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته ما دامت تنعطف عليه جوانب هذا الكلام الالهي وما دام في موضعه من النظم والسياق ، فاذا أنت حرفت الفاظه عن مواضعها أو أخرجتها من أماكنها وأزلتها عن روابطها حصلت معك الفاظاً كغيرها مما يدور في الالسنة ويجري في الاستعمال ورأيتها ـ وهي في الحالين لغة واحدة ـ كأنما خرجت من لغة الى لغة لبعد ما كانت فيه مما صارت اليه ، بيد أنك اذا تعرفت الفاظ اللغة على هذا الوجه في كلام عربي غير

القرآن أصبت أمراً بالخلاف ورأيت لكل لفظة روحاً في تركيبها من الكلام فاذا أفردتها وجدتها قريبة مما كانت لانها هي نفسها التي كانت من روح التركيب ، ولم يكن لهذا التركيب في جملته روح خاصة بالنسق والنظم فيعطي كل لفظة معنى في الجملة كما اعطتها اللغة معنى في الافراد حتى اذا ابنتها وميزتها من هذه الجملة ضعفت ونقصت وتبينت فيها من الوحشة والقلة شبيه الذي يعرض للغريب اذا نزح عن موطنه وبان من أهله وكان كل ذلك فيها طبيعياً لان حقيقة التركيب انما هي صفة الوحي في هذا الكلام. هذا الكلام .

وهذه الروح التي اومأنا اليها ( روح التركيب ) لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين اجزائها تفاوت او تباين اذ نراه ينظر في التركيب الى نظم الكلمة وتأليفها ثم الى تأليف هذا النظم . فمن ههنا تعلق بعضه على بعض وخرج في تلك الروح صفة واحدة هي صفة اعجازه في جملة التركيب فيما عرفت ، وان كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من اغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الامثال الى نحوها مما يدور عليه . ولولا تلك الروح لخرج اجزاءاً متفاوتة على مقدار ما بين هذه المعاني ومواقعها في النفوس .

الى ان قال :

وانك لتحار اذا تأملت تركيب القرآن ونظم كلماته في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها ، وتقعد بك العبارة اذا انت حاولت ان تمضي في وصفه : حتى لا ترى في اللغة كلها ادل على غرضك واجمع لما في نفسك وأبين لهذه الحقيقة غير كلمة الاعجاز .

وقال الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه الوحي المحمدي : لو ان عقائد الاسلام المنزلة في القرآن من الايمان بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وما فيه من الحساب والجزاء ودار الثواب ودار العقاب جمعت مرتبة في ثلاث سور او اربع او خمس مثلا ككتب العقائد المدونة •

ولو ان عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعاء والاذكار وضع كل منها في بضع سور ايضاً مبوبة مفصلة ككتب الفقه المصنفة •

ولو ان آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمندوبة وما يقابلها من الرذائل والاعمال المحرمة والمكروهة ، افردت هي وما تقتضيه من الترغيب والترهيب من المواعظ والنذر والامثال ، الباعثة لشعوري الخوف والرجاء ، فصلت في عشر سور او اكثر ككتب الاخلاق والآداب المؤلفة •

ولو ان قواعده التشريعية واحكامه الشخصية والسياسية والحربية والمالية والمدنية وحدوده وعقوباته التأديبية رتبت في عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية •

ثم لو ان قصص النبيين والمرسلين وما فيها من العبر والمواعظ والسنن الالهية سردت في سورها مرتبة كدواوين التاريخ •

لو ان كل ما ذكر ومالم يذكر من مقاصد القرآن التي اراد الله بها اصلاح شؤون البشر جمع كل نوع منها وحده كترتيب اسفار التوراة التاريخي التي لا يعلم احد مرتبها ، او كتب العلم والفقه والقوانين لفقد القرآن بذلك اعظم مزايا هدايته المقصودة القصد الاول من التشريع وحكمة التنزيل وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للكثير او المقليل من سوره - حتى القصيرة منها - كثيراً من مسائل الايمان والفضائل والاحكام والحكم المنبثة

في جميع السور • لان السورة الواحدة لا تحوي في هذا الترتيب المفروض الا مقصداً واحداً من تلك المقاصد وقد يكون احكام الطلاق او الحيض فمن لم يحفظ الا سورة طويلة في موضوع واحد يتعبد بها وحدها ، فلاشك انه يملها •

واما سوره المنزلة بهذا الاسلوب الغريب ، والنظم العجيب فقد يكون في الآية الواحدة الطويلة والسورة الواحدة القصيرة عدة الوان من الهداية وان كانت في موضوع واحد ، فترى في سورتي الفيل وقريش ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتا حجة على مشركي قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته بما من عليهم من عنايته بحفظ البيت الحرام وامنه وهو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم ومعقل حياتهم ومجبي تجارتهم ورزقهم •

## اخباره عن الماضين والمغيبات

اخبر القرآن الكريم عما وقع للانبياء مع اقوامهم من القصص والحوادث في العصور الماضية كقصة آدم عليه السلام مع الملائكة والشيطان ، وكقصة نوح عليه السلام مع قومه وكيف دعاهم الى الخير وترك عبادة الاصنام فاعرضوا ثم انذرهم العقاب فعموا وصموا ووضعوا اصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا ، ففزع نوح الى الله ودعا عليهم وقال « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفارا » فاتاهم الطوفان حتى طوتهم المياه طي السجر في الفؤاد • وكقصة هود عليه السلام مع قومه عاد وكيف قابلوه بالعناد ورموه بالسفه والمس وبقي يدعو ويعرضون الى ان اتاهم الله بريح صرصر عاتية فاصبح القوم بعدها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية • وكقصة صالح عليه السلام مع

قومه ثمود وكيف عقروا الناقة وعتوا عن امر ربهم وقالوا : ياصاح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين ، فقال لهم تمتعوا في داركم ثلاثة ايام ترون بعدها العذاب الاليم ، فبيتوا له ولأهله الشر واضمروا على قتله مع اهله ولكن الله لم يمهلهم بل انزل عليهم عقابه فاخذتهم الصاعقة فاصبحوا في دارهم جاثمين . وكقصة ابراهيم عليه السلام مع اهل بابل وملكهم نمرود وكيف افتتح دعوته الى الله بدعوة ابيه فاعرض عنها وكيف حطم اصنام قومه ، وكيف القوا به في النار فحفظه الله تعالى من لظاهـا وانقذه من سعيرها وقال لها يانار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ، وذكر ما جرى بين ابراهيم عليه السلام وبين النمرود من المحاجة والجدل ثم هجرته من بابل الى فلسطين ومن هناك الى مصر وعما جرى بينه وبين ملكها العمليقي ثم ما كان بينه وبين ولده اسماعيل عليهما السلام وبناء الكعبة . وكقصة لوط عليه السلام وقومه في مدينة سذوم وكيف كان ينهاهم عما كانوا عليه من انحلال في الاخلاق وفساد في الحال وحب الفاحشة ولكن آذانهم وقرت وعيونهم عميت وقلوبهم غلفت فاندفعوا في شرورهم واستمروا على فجورهم ، فدعا عليهم لوط عليه السلام فاستجاب الله دعاءه وبعث ملائكته الى اهل هذه القرية الظالم اهلها فأمروا لوطاً ان يسري هو واهله بقطع من الليل والا يصطحب امرأته فسيحل بها ما يحل بالقوم جزاء نفاقها ومشايعتها لهم ، ولما فارق لوط واهله القرية ، جاءها أمر الله وزلزلت الارض زلزالها فصار عاليها سافلها ، ثم غشيت بمطر من سجيل فاصبحت ديارهم خاوية بما ظلموا . وكقصة يعقوب عليه السلام وبنيه ويوسف واخوته ، والحوادث التي وقعت ليوسف واخوته والحوادث التي وقعت ليوسف عليه السلام في مصر . وكقصة شعيب عليه السلام واهل مدين وما نزل بهم من العذاب . وكقصة موسى عليه السلام من ولادته الى وفاته وما جرى له من الحوادث مع فرعون وقومه بني اسرائيل والخضر

وغير ذلك من الحوادث . وكذلك ما كان لداود وسليمان عليهما السلام من الحوادث والوقائع ، وما كان لسليمان عليه السلام مع بلقيس والنملة . ثم ما جرى لبني اسرائيل لما استشرى فيهم الفساد وتهافتوا في حمأة الضلال ، ولم تعد للرحمة مكان في نفوسهم فانذرهم ارميا بشر مستطير اذا لم ينتهوا عما نهوا عنه فقابلوه بالسخر والهزء ولم يكتفوا بذلك بل رموه في سجن عميق ، فسلط الله عليهم بختنصر ملك بابل حيث زحف عليهم فدخل فلسطين وهدم بيت المقدس واحاط القوم قتلا وذبحاً وأسراً وسبياً ثم فرقهم في الارض بدداً ، ثم خلف بختنصر بعد وفاته ملك خافض الجناح ورأى القوم من بني اسرائيل يتقلبون في اصفاد الذل وينالون الوان العذاب فرق لحالهم وفك اسرهم ورخصهم للعودة الى بلادهم فرجعوا الى بلادهم ورد الله الكرة عليهم وامدهم بالاموال والبنين - وكان من حقهم ان يعتبروا بما كان وان يقابلوا النعمة بالشكران ، ولكن انى للنفوس التي طبعت على الشر ان تستروح الخير وتميل الى الصلاح ، وأنى لسلائل القوم الذين تمالئوا على يوسف ، وآذوا موسى من بعده ان تأنس نفوسهم الى الاطمئنان ، او تنسى العدوان ، فانهم ما عتموا ان رجعوا ادراجهم الى الشر واخذوا يحيكون حبال الظلم والبغي ، حتى اذا ما قام فيهم زكريا ويحيى نبيين رحيمين ورسولين كريمين ، سفكوا دمهما ، كأن نفوسهم عطشى الى الدماء ، وكأن وتراً بينهم وبين الانبياء ، وعادوا الى الشر والعدوان وعاد الله بهم الى المكر والانتقام ، وسلط عليهم ( جودرز ) كما سلط على من قبلهم بختنصر ، واعاد الكرة عليهم من ذهاب ملكهم وتخريب معابدهم ، وهكذا مزقوا كل ممزق ، وتفرقوا تحت كل كوكب ، وضرب الله عليهم ابد الدهر الذلة والمسكنة ، وباؤا بغضب من الله « ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . وكقصة يونس عليه السلام مع اهل نينوى والمسيح

عليه السلام وبني اسرائيل وذي القرنين واصحاب الكهف واصحاب الأخدود واصحاب الفيل الى غير ذلك مما يطول شرحه ويخرجنا عن الاقتصار في الاستقصاء •

كما اخبر عن المغيبات في عصر تنزيله وفي المستقبل ، كقوله تعالى ( غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » وقد وقع ما اخبر به القرآن الكريم من انتصار الروم على الفرس • وكقوله تعالى « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين» • وكقوله تعالى «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم • وقد حقق الله ذلك في القرون الاولى من صدر الاسلام ، وسيتم الله وعده للمسلمين في الاعوام المقبلة فيسودون العالم كما سادوه من قبل ، وكقوله تعالى في تعذيب اليهود وبقائهم تحت حكم غيرهم « واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » وها نحن نقرأ عما جرى لليهود في جميع أقطار العالم من اضطهاد وسيبقون هكذا الى الى يوم القيامة ، ولا يعتقد احد ان تقوم لهم قائمة الى يوم القيامة وما تجمعهم في فلسطين وانشاء كيان لهم فيها الا بركان يريد الله ايقاعهم فيه لتهلك البقية الباقية منهم • وكقوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » فقد وعد الله تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغيير والتبديل وقد مضى على نزوله اربعة عشر قرناً وهو كما نزل بخلاف بقية الكتب الاخرى التي اعتراها التغيير والتبديل • وكقوله تعالى « قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذاباً من فوقكم او من تحت ارجلكم او

يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » وقد قال ابن مسعود انها نبأ غيبي عمن يأتي بعد ، وظهر مصداقها في الحرب العظمى والحروب التي تجري الآن الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي وردت في هذا الباب والتي لا يمكن استقصاؤها في هذه العجالة .

---

## أثر القرآن

## في تحرير الفكر الانساني

قال الاستاذ محمد فريد وجدي :

أول ما وجد الانسان على الارض كان جاهلا كل الجهل وكان مع جهله هذا ليس بمجرد من عاطفة دينية كما يدل عليه كل ما وجد من آثار الامم السابقة على التاريخ فلم يشاهد جماعة من جماعاته محرومة من دين ساذج يناسب الحالة العقلية التي كانوا عليها . ولاتزال توجد في الارض قبائل متوغلة في التوحش تعطينا مثلا محسوسا على ما كان عليه الانسان في اول وجوده ومما هو محقق أن الخالق سبحانه وتعالى لم يحرم الانسان وهو في ذلك الدرك الاسفل من وجوده من رسل يهدونه الى الحق بالقدر الذي يطيقه تعقله . ولكنه ما كان يلبث ان ينقاد لاوهامه فيؤله قوى الطبيعة ، أو يتخيل وراء ظواهرها روحاً او ارواحا تمنحه الخير متى رضيت عنه ، وتقذفه بالشر متى سخطت عليه ، فكان يستجلب رضاءها عليه بما تزينه له عقليته الناقصة ولو بتضحية فلذة كبده لاسترضائها . ولاشك انه كان يصدر في كل ذلك عن رجال نحلوا انفسهم صفة الوساطة بينه وبين الآلهة فكان يدين بما

يوسوسون له به غير طالب علىما يقولون دليلا ، لا لأنه كان يقدسهم فحسب، ولكن لانه لم يكن يميز بين ما هو حق وما هو باطل من العقائد ، فكل شيء كان عنده صحيحاً ما دام يصدر عن المهيمنين على ديانته •

فلما حصل للانسان بعض العلم بالوجود الذي يعيش فيه ، وأخذت قواه العقلية تشعره شعوراً ساذجاً بان من الامور ما هو حق ومنها ما هو باطل ، ازداد تعويلا على قادته ، وتمسكا بما يفضون به اليه ، وتسليما منه بان الحق لا يعدو ما يؤاتونه اياه على اية حال •

انتقل الانسان درجة بل درجات في باحات العلم ، وقويت فيه غرائزه الادبية ، واستعدت للقيام بحصتها من حياته العقلية فلم يؤثر هذا في خضوعه لأوليائه ، لأنهم انقطعوا لمهمتهم الروحية كانوا يسبقونه الى التطور فيوفونه حاجته من الغذاء العقلي فكان يضطر للانقياد لهم ، اذ يصادف لديهم كلما حفزته الحاجة الى المزيد منه فيظل اسيراً في قبضتهم •

تتابعت القرون والاجيال ، والناس جميعاً على هذه الحال ، حتى ولدت الفلسفة اليونانية ونبغ بين احضانها رجل وقر في انفسهم ان من حقعقولهم عليهم ان يناقشوا رجال الدين فيما يدلون به الى الناس من عقائد ، فكان جزاؤهم القتل ، وأكبر من ذهب منهم ضحية لهذه التهمة الفيلسوف سقراط عمدة الفلسفة اليونانية •

ولكن ما لبث هذا الحجر على الفكر أن خفت وطأته ، فتمكن فلاسفة كثيرون من الافضاء بمذاهبهم الى الناس ، وفي بعضها ما يخالف عقائد عامتهم ، بل منها ما يفضي الى المادية البحتة •

ولكن هذا العهد لم يدم طويلا ، فانه لما عمت الديانة المسيحية أوربا أصبح لحفظتها من السلطان ونفاذ الكلمة ما ليس للملوك المتوجين ، فوضعوا حدوداً للنظر لا يسمح لاحد بتعديها ، فوقفت حركة الفكر أكثر من الف سنة لم ينبغ في اثنائها على ما يقول المؤرخون عالم واحد في أي فرع من فروع العلم ، وبقيت كتب الاوائل مكدسة في المكتبات ترعى فيها الحشرات.

فكان العالم لا يخلو في اثناء تلك القرون الراكدة من نبوغ عقول نيرة تبحث في بعض الشؤون الكونية ، وتأتي بما يعده القائمون بالامور الدينية زيغاً ، فكان هؤلاء المفكرون يحاسبون على ما أتوا به حسابا عسيرا ، فيستتابون ويعزرون ان كانت جريمتهم هينة ، فان عادوا لمثل ما أخذ عليهم فجزاؤهم كان القتل على أبشع حالة .

هذه الشدة المتناهية في القسوة لم تمنع العقول القوية من الظهور آونة فآونة ، فكان حفظة العقائد يلتقطون أصحابها واحدا واحدا ويخمدون انفاسهم ، حتى لا تسري عدواهم لسواهم . ظلت الحال جارية على هذا النحو حتى بلغ عدد ضحايا الفكر الحر أكثر من ثلثمائة ألف ، أحرقوا بالنار ، أو ألقوا في البحار ، أو ماتوا وخزاً بالسفافيد المحماة الخ ..

ومن عجب انه كلما ازداد عدد هذه الضحايا كثر المترسمون لخطواتهم ، وكلما امعن رجال الدين في عنادهم ، استبسل رجال الفكر في جهادهم ، وتيقظ الناس من سباتهم ، وبعد ان كان النزاع محصوراً بين رجال الدين ورجال العلم ، تعداهم الى رجال الدين انفسهم ، وما هي الا فترة حتى انصدعت وحدتهم ، فاعلن جمهور كبير منهم عزلتهم ، مؤسسين مذهباً جديداً للمسيحية باسم البرتستانية ، فيها تسامح كبير ازاء رجال العلم ، ومجال فسيح للفكر الحر والرأي المستقل ، وكان ذلك في

القرن السادس عشر ، اي بعد ظهور الاسلام بنحو الف سنة الناظر في هذه السلسلة الطويلة من التنازع يظنها تطورات ادبية محلية ، والحقيقة انها تتصل بالنهضة التي احدثها القرآن في الشرق اتصالا وثيقاً ، فان المسلمين اتصلوا باوربا من جهة غربها منذ اواخر القرن الثامن الميلادي بفتحهم للاندلس ، فاسسوا فيها دوراً للعلم ، وجروا فيه من حرية البحث واستقلال الرأي على ما يقضي به الدستور القرآني ، فتأدوا الى مدى بعيد من المعارف والفنون ، وصارت جامعات قرطبة واشبيلية مثابة لطلاب العلم الغربيين فنهلوا من معينها الصافي مالا يصلون الى مثله في بلادهم ، ومرنوا على الاسلوب الذي كان يجري عليه علماء المسلمين من الحرية والاستقلال ، فتشبعت به نفوسهم ، وارتاحت اليه عقولهم ، فلما عادوا الى بلادهم اخذوا يبثون في مواطنيهم هذه الروح الجديدة ، فسرت في اذكيائهم سريان النور في الظلام وفتحت امامهم آفاقاً من النظر ، ووقفتهم على مواطن الفساد من نظمهم التعليمية ، وسلطانهم الاستبدادية • ومتى اشعرت النفوس بنقصها اندفعت مضطرة بغرائزها لتكميلها فانتدبت افراداً منها للتفكير والنظر ، غير معتدين بالحدود التي أمرت السلطة الدينية بعدم تعديها ، فحدث من جراء ذلك كل ما ذكرناه من ذلك التاريخ هنا •

اما دخول العلم الاسلامي الى اوربا من طريق الاندلس وطريق ايطاليا فأمر قد اعترف به مؤرخوهم ، واما استمدادها روح نهضتها من النهضة الاسلامية فحادث لا يمكن المراء فيه لاجماع مؤرخيها ان علوم المسلمين وآدابهم هي التي ايقظت اهلها من سباتهم ، ودفعتهم لبلوغ هذا الشأن من المدنية التي هم عليها اليوم • واست أحب أن أطيل الكلام بايراد الشواهد من كتب مؤرخيهم ، فانه أصبح معلوماً من الناس أجمعين •

أما الاسلوب الذي تمكن به القرآن من كسر القيود الفولاذية التي كان يرسف فيها الفكر الانساني في مدى سنين معدودة ، بعد أن لبث عليها

قروناً كثيرة ، فان في بيانه عبرة للسائلين ، وآية للناس أجمعين .

انزل الله القرآن والناس على ما تعلم من عبادة الاهواء ، والجمود على تقليد الآباء ، والطاعة العمياء للزعماء ، فلو كان جرى على الاسلوب البشري في بعث هذه العقليات الخامدة ، وتنبيه هذه النفوس الهامدة ، لاستدعى ذلك قروناً واجيالا ولكنه أتى في هذا الموطن بآية سيرفعها الناس الى أعلى من مستوى احياء الموتى ، حين يعرفون أن نقل النفوس عما ورثته طفرة ، دونه نقل الجبال الشم من أماكنها .

تصدى الاسلام لتحرير العقلية الانسانية من طريق غير مباشر ، فجاءها من الناحية التي يشتد شعورها بها ، وهي ما ستؤل اليه بعد الموت ، فأفاض في ذكر العذاب الذي ستلاقيه النفوس الكافرة الجاحدة افاضة لم تؤثر عن سواه ، وبالغ في تهويله على ضروب تنخلع لها القلوب وترتعد منها الفرائص ، مؤكداً أن الانسان وهو في تلك الحالة لا تجديه شفاعة شفيع ولو كان ملكا مقرباً ، ولا قرابة قريب ولو كان رسولا مكرماً ، بل لا يجد من يتطوع لانجاده من أب أو أم أو صديق ، لاشتغال كل امرىء بنفسه : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وابيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » « يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ، ولا يسأل حميم حميما ، يبصرونهم ، يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومن في الارض جميعا ثم ينجيه » « ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاوفى » « اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب » « وقالوا ( أي أصحاب النار ) ربنا انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا » « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » « تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما

كانوا يعملون » الخ الخ •

الناظر في هذه الآيات ، وفي الكتاب عشرات من أمثالها يعجب من كثرتها ، ولكنه لو أدرك أن هذا كله تمهيد لاعظم اصلاح تم حدوثه في الارض ، وكان فاتحة لكل الاصلاحات التي تلتها من بعد ، ذلك الاصلاح الذي رمى لان يرفع عن النفوس البشرية نير العبودية للاوهام والتقاليد التي أمسكتها في الظلام أجيالا طويلة ، تبين له وجه الحكمة من الاكثار من هذه الزواجر •

ألا ترى أن النفوس متى تحققت أنه لا ينجيها من عذاب الآخرة شيء غير عملها الذاتي ، انساقت للنظر في وجه خلاصها وما دام لن ينفعها شفاعة شفيع ، ولا قرابة قريب ، ولا اتباعها لمن تتخيل فيهم الهداية ، وتتوهم منهم الوساطة ، كرهت الجمود على الموروثات ، ومقتت التقليد للآباء ، وأيقظت في نفسها خاصة النقد والتمحيص في كل ما يعرض لها من العلم ، فلم تعد أسيرة أحد فيما تعتقده وما تأخذ به ؟ وهذا هو معنى حرية الفكر واستقلال الرأي الذي سعى لاقامة دولتيهما العباقرة أجيالا متطاولة ، وبذلوا في تشييدها دماءهم رخيصة ، وأقامها الأسلام في سنين معدودة ؟ •

وقد رأيت ان الاسلام قد جاء بهذا الاصلاح للآخذين به طفرة ، مؤسساً اياه على أرسخ غرائز النفس ، وأعمق نحائزها فنشأت أمة تنظر وتفكر ، وتدعو كل فرد منها ليفكر لنفسه ، ويعمل لها ، وقد خلد رسول الله (ص) هذا الاصل بكلمة من صميم العلم الالهي ، وهي قوله لابنته : « اعملي يافاطمة فاني لا أغني عنك من الله شيئاً » •

وقد نشأ في هذه الامة عدد لا يحصى من العلماء والحكماء فلم يقل واحد منهم : خذوا بما أقول لا تنظروا فيه ، بل قالوا كلهم كما قال مالك : « ما من أحد الا وهو مأخوذ منه ومردود عليه الا صاحب هذه الروضة » يعني النبي (ص) •

# محتويات الـكتاب